التالته آه

مجموعة قصصية

اسم الكتاب: التالته آه
تأليف: إيناس التركي
مراجعة لغوية : عزة أبو الأنوار
تصميم الغلاف : عبد الرحمن الصواف
رقم الإيداع: 978-977-6376-61-8
الترقيم الدولي: 2014\14415

***

إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

دار كيان للنشر والتوزيع – 22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحى الجيزة – الهرم
محمول: 01005248794 – 01001872290 – أرضي: 0235688678
www.kayanpublishing.com - info@kayanpublishing.com
kayanpub@gmail.com

© جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبع أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من المؤلف؛ يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

التالته آه

إيناس التركي

مجموعة قصصية

إهداء

إلى فرح
فرحة عمري كله

شكر

أجمل كلمات شكر قرأتها بين صفحات كتاب كانت كلمات أليس ووكر في نهاية روايتها «اللون البنفسجي»:
أشكر جميع من في هذا الكتاب على حضورهم.

أ. و. كاتبة ووسيط روحي.

أحسد كل وسيط تحل عبره أرواح الشخصيات ضيفًا على الصفحات، تبثّه أسرارها وتشاركه حكاياتها لينقلها للقراء. عن نفسي، أطمح أن أبلغ تلك المرتبة لأكون يومًا وسيطًا روحيًا أنا الأخرى. «التالته آه» هي محاولات شهرزاد التي بين صفحات هذا الكتاب أن تتخطى مرحلة وساطة ربات الإلهام بينها وبين شخوصها، حتى تبلغ مرتبة الحلول مباشرة. لكن بالرغم من كل شيء، فهي مدينة بالشكر لربات البياض على ما جادوا به.
عن نفسي، فأنا مدينة بالكثير من الشكر والعرفان للأصدقاء، الذين كانوا بمثابة القرّاء والنقاد في آنٍ واحد لهذا العمل في مراحله المختلفة قبل أن يكتمل.
أخص بالشكر كل من فاطمة بسيوني وحسام محفوظ اللذين كانا أول قارئين وناقدين لكلمات هذا الكتاب. شكرًا لفاطمة على

كل المـرات التـي شـجعتني فيهـا ودفعتنـي إلى العمـل حينـما كان يتملّـك منـي الكسـل، وشـكرًا لنقدهـا الموضوعـي الدقيـق. وجزيـل الشـكر لحسـام عـلى تشـجيعه وملحوظاتـه وتقاريـره المفصّلـة التـي لم يبخـل عـليّ بهـا، حتـى في أكـثر أوقاتـه انشـغالاً.

أديـن بالشـكر أيضًـا لمرفـت عبـد الـرؤوف لملحوظاتهـا وللتدقيـق اللغـوي، وكذلـك أحمـد سـعيد، وحمـور زيـادة لمـا بـذلاه مـن وقـت وجهـد في القـراءة، ولمـا أبديـاه مـن آراء اسـتفدت بهـا كثـيرًا.

شـكرًا لـ «رفـاق المـكان»، شريـف الهـراوي وهبـة بسـيوني عـلى كل التشـجيع والملحوظـات التـي أبدياهـا.

وأخـيرًا وليـس آخـرًا، شـكرًا لمريـم سـاني، ابتهـال الجوهـري، عبـاس الزيـن، نانـسي زايـد ورانيـا متـولي.

شو بيبقى من الرواية
شو بيبقى من الشجر
شو بيبقى من الشوارع
شو بيبقى من السهر
شو بيبقى من الليل
من الحب من الحكي
من الضحك من البكي
شو بيبقى شو بيبقى
شو بيبقى يا حبيبي
بيبقى قصص صغيرة
عم بتشردها الريح

فيروز
كلمات الأخوين رحباني

بداية

في البدء كان الكلمة

إنجيل يوحنا
الإصحاح الأول

الأوله
الكلام المباح

تململت شهرزاد في جلستها، تثاءبت ثم تنهدت. حدقت الحدقتان في البياض ثم أسدلت عليهما الجفون، وأبحرت النظرة إلى الداخل. تعمد الروح بتعاويذ الحروف، تتلوها، تقلبها، تجمعها، تفرقها. تسكر بنبيذ المعاني. تروي الورق بنزيف الحبر، لكن رغم ذلك لا ترتوي لديها شهوة البوح المُشرعة في مواجهة البياض المشرع هو الآخر، باردًا لا مبالٍ لا متناهٍ. بين حناياها تحركت النقاط والحروف، تأكلها من الداخل كيرقات تتغذى على مضيفها حتى لا يبقى منه غير القشرة الهشّة للجسد الخارجي، والبياض حائط صلب لا يلين. يئست من حربها بين الجدران فحملت أحرفها بداخلها وهجرت البياض الشاهق.

تلقفتها الشوارع المكتظة. تندفع وسط زحام البشر في الطرقات والأزقة، نقطة فوق حرف من كلمة في حكاية. اندلعت الألوان والأصوات والروائح واستشرت في حواسها دفعة واحدة، فجفلت لحظة كما يجفل من صافح النور المبهر عينيه من بعد طول عتمة. قطرة قطرة، تسرب إلى داخلها العالم الخارجي كالماء المنسال من بين أصابع الكفين تتشربه التربة العطشى بحنين البيداء للمطر. تشربت حواسها كل شيء بنهم، ومع تشبع الحواس وارتوائها تحركت بذور المعاني الكامنة بداخلها. تفتل حبال الحكاية من زرقة السماء وهشاشة الغيم.. من الألوان المتنافرة لغسيل منشور وملابس معروضة على الأرصفة وفي الواجهات الزجاجية.. من سمرة الوجوه وضجيج الطريق الذي ارتسمت ملامحه من الأسفلت المتكسر،

وتشكيلات الطين الجاف المتخلف بعد جفاف الماء المتسرب من البالوعات وغسيل السيارات.. من رائحة التربة والتراب وعربات الفول المدمس والكبدة مجهولة الهوية وعرق المارة.

تأملت الوجوه العابرة والمتراصة على المقاهي. لكل وجه حكاية تكتبها بمخيلتها. تحصد سنابل الكلمات والمعاني من بقايا الأحاديث المترامية ومن فوق الشفاه ومن داخل النظرات المعلقة في الأعين. تلتهم بعينيها كل المرئيات وتتحرك أرنبة أنفها كالأرنب وهي تستنشق الروائح وتلفظها في ذات الوقت. تكتب بحواسها قبل عقلها فصول ألف حكاية وحكاية. امتد حبل الرواية الموصول من بين حناياها وتضافر مع حبال الحكايا من حولها، فاكتملت المعاني وضمنت لذاتها الاستمرارية والبقاء. تعلق بأذنها صليل الصاجات النحاسية لبائع العرقسوس فالتفتت لتراه يؤدي رقصته، يدور بجذعه دورتين ثم يميل يمينًا وهو يحمل بيده الممتدة الكوب، يقربه ويبعده حتى تتوج هامته الرغوة، خلاصة الحكاية والكلام المباح.

-١-

هناك أماكن تبقى فينا بعد الرحيل
وثمة أماكن نرتحل عنها ونحن فيها
ثمة جدران أكثر وفاء من ساكنيها
تبكينا كما ليس يفعلون
وتحفظ ذكرياتنا كما لا يحفظون
فللجدران أرواح
وللأماكن أرواح

إيمان أحمد
حين يرتدي الحزن قلوبنا

الأوله
ليمون بالنعناع الأخضر

مآذن الأزهر تلوح كأذرع ضارعة، تمتد وترتفع لتطاول عنان سماء رمادية صلبة. تسير وسط زحام البشر والباعة الجائلين على جانب الطريق. سيدة عجوز افترشت الرصيف، تعدل من وضع طرحتها السوداء بيد، وتمسك بالأخرى زجاجة من عصير برتقالي اللون. يمر بجوارها قط ضال يتمسّح فيها، فتبتسم وتنفرج شفتاها عن لثة فارغة لم يبقَ فيها سوى سن ذهبي وحيد يضوي كشمس صغيرة في عتمة الفم الخالي.

شيخ متعب جلس على سور منخفض يحيط بالحشائش الصفراء المنهكة وسط الرصيف المترب. يسند على السور بجواره عكازاً قديماً من الخشب، ويرتدي جلبابًا بنيًا فضفاضًا، كشفت أكمامه الواسعة عن ذراع نحيلة ارتفعت لتمسك يده هاتفًا جوالاً صغيرًا بجوار أذنه. علت أنغام المقدمة الموسيقية لأغنية «أنت عمري» والرجل يغمض عينيه غافلاً عن الضجيج والزحام من حوله، ويهز رأسه ويتمايل جسده في انتشاء وطرب.

تواصل سيرها مخترقة الجموع. تعبر للجانب الآخر من الطريق، وتكاد في عبورها تصطدم بفتاة سمراء نحيلة ترتدي ملابس حمراء وصفراء فاقعًا لونها. انطلقت من الجسد النحيل ضحكة رائقة كأجراس فضية عديدة، امتزجت ببقايا الأنغام الكلثومية التي علقت في الجو المترب، بينما الفتاة ترفع ذراعها لأعلى وهي تمسك بيد فتى أسمر أكرت الشعر يقاربها طولاً وعمرًا. رفع هو الآخر

ذراعه وتباعدا في سيرهما، بينما كفاهما متشابكتان كي يعبر من تحت الجسر الذي شكّله الذراعان المتصلتان صبي صغير يحمل فوق رأسه قفصًا من جريد النخل، تراصت فوقه أرغفة الخبز الساخن التي ارتفعت أسطحها كقباب صغيرة شهية الرائحة. يضحك الصبي متواطئًا وهو يمر من أسفل الجسر ويصدر صفيرًا منغمًا.

تصل إلى الجهة المقابلة وتمر أمام مقهى بلدي، اصطفت على الرصيف أمامه الطاولات الصغيرة ذات الأسطح القذرة والكراسي العرجاء الصامدة رغم كل شيء. ازدحم المقهى بالرجال الذين يدخنون الشيشة، والذين تراصت أمامهم أكواب الشاي الأسود الداكن. تعالت ضجة أصوات لعب الطاولة والدومينو وامتزجت بصوت التليفزيون الصغير المعلق على حامل بركن في الداخل، واختلط كل ذلك برائحة المعسل القوية.

وسط كل عناصر تلك اللوحة الصاخبة، ظهرت سيدة في المقدمة جلية متفرّدة. تجلس على إحدى الطاولات التي انتحت جانبًا وحدها، وكأن الجميع اتفقوا على احترام الحدود المرسومة لها. ترتدي فستانًا بسيطًا أسود اللون، ورغم السواد الحائل والشعر الفضي المعقوص ببساطة للخلف، بدت قمة في الأناقة. تجلت على ملامحها المتقدمة في السن بقايا جمال زائل، وعلى هيئتها مسحة من عزٍ قديم آفل. الابتسامة الصغيرة التي علت شفتيها بدت غامضة، كما بدا أنها من معتادي الجلوس في هذا المكان، وأن الجميع ألفوها فلم يعد يلتفت لها أحد.

لاحظت السيدة زوجًا من الأعين مثبتًا عليها، وبحيرات الدهشة والفضول تتسع دوائرهما بداخل الحدقتين. اتسعت ابتسامتها وهي تتناول بيد ظهرت فيها العروق زرقاء واضحة أسفل الجلد الشاحب، كوبًا من مشروب بدا لونه حائرًا ما بين الصفرة والخضرة، وقد تكثّفت قطرات صغيرة باردة على سطح الكوب من الخارج، وأصدرت مكعبات الثلج بداخله موسيقى منعشة وهي تصطدم بعضها ببعض برقّة.

- لما الحياة تديكي ليمون، اعملي ليمون بالنعناع الأخضر واظبطي السكر على كيفك!

اندلعت العبارة من فمها فجأة، ما زاد تأجج الدهشة في العينين المحدقتين، ثم انطفأت أحرفها بنفس السرعة التي اندلعت بها، والسيدة ترفع لشفتيها الكوب البارد وترشف مشروبها الذي تراقص لونه بين حدود الأصفر والأخضر.

التانيه
إيثاكا

موسيقى الجيتار بنغماتها الغجرية تملأ أركان الغرفة المعتمة، بينما السماء بلون الرماد البارد خلف زجاج النافذة المغلق، الذي تصفعه قطرات سمينة من مطر، لا تلبث أن تنزلق من على وجهه، مخلّفة وراءها آثارًا كمجرى الدمع على الخد. الستائر المغلقة عدا بضعة سنتيمترات بين الطرفين المتقابلين، ذات لون النبيذ الضارب إلى الحمرة القانية، صنعت خلفية للون الأبيض المائل إلى الرمادي الذي تصاعد دخانًا، يتمايل وتتراقص أمواجه بعبق البخور الدافئ. صوت أنثوي به بحة ينساب بكلمات أغنية إسبانية ترافق نغمات الجيتار، بينما تعلو ضربات أقدام تدق الأرض بخطوات الفلامنكو، وخبطات كف تصفق على نظيرها بإيقاع متناغم مع دقات الخطى، التي أخذت تتعالى وتزداد صخبًا. في ركن الغرفة استقر مقعد ضخم له ذراعان وظهر مرتفع، وقد تربع فوقه مجسم خشبي صغير له شكل جسم الإنسان الذي يمكن تحريكه ليتخذ أي وضع من الأوضاع. كان الجسد الخشبي قد جلس متكئًا على الذراع المخملية للمقعد، وقد أسند يدًا على وجنته سارحًا في تفكر صامت. في الجهة المقابلة للكرسي تقبع أريكة لها خطوط انسيابية بسيطة، ولا يميزها سوى الوسائد التي تناثرت عليها بأشكال وألوان مختلفة. في منتصف المسافة بين الكرسي والأريكة استقرت طاولة متوسطة الحجم، حفرت أرجلها علامات عميقة في ملامح سجادة يدوية عتيقة متآكلة بعض الشيء.

جلست متكومة في ركن الأريكة في وضع جنيني، وقد أراحت

رأسها فوق إحدى الوسائد، بينما احتضنت أخرى واحتوتها بين بطنها وساقيها المنثنيتين. كان جسدها يتمايل ويهتز للأمام تارة وللخلف تارة أخرى. بدا وكأنها ضبطت اهتزاز جسدها مع الدقات المنتظمة الصاخبة، وفي ذات الوقت مع حركات راقص آخر خفيّ. انتفضت واقفة فجأة وقد ألقت الوسادة جانبًا. اتجهت نحو النافذة وقدماها تدقان في خطوهما مع الإيقاع، ثم مدت يدها لتجذب طرف الستارة وتدور بها في حركة عابثة، تقع في منطقة وسطى بين حركة راقصة الفلامنكو بشالها وحركة مصارع الثيران بعباءته. أربكت الحركة المفاجئة أمواج البخور الرمادية فاهتزت وتبعثرت بعض الشيء، قبل أن تجمع شتاتها وتعاود رقصتها الهادئة مرة أخرى. لمحت السماء الباردة كالرصاص في الخارج، ودموع النافذة المتلاحقة في جريانها، فتجمدت لوهلة قبل أن تسقط يدها بجانبها دون أن تهتم بفتح الجهة المقابلة من الستارة. عادت لتتكوم في منتصف الأريكة وقد ثنت ساقيها وأراحت ذقنها على ركبتيها، بينما ثبتت نظرتها المنهكة على المجسم الخشبي الصامت.

- تعبت!

- ...

- دماغي مليانة أصوات كتير. الكل بيتكلم ومحدش بيقول حاجة ومش فاهمة أي حاجة!

- ...

- الكل بيتكلم وبيزعق ما عدا إنتي! ساكتة ليه؟

- .....

- ما تنطقي!

قالتها بحنق وهي تقذف بالوسادة المجاورة لقدمها، في عنف أطاح بالمجسم الخشبي من جلسته، فتكوّم على جنبه وقد انثنت أطرافه، كمن أصيب بكسور متعددة، لكنه ظل محتفظًا بهدوئه وهيئته المتفكرة. غطت الوسادة نصف الرأس الخشبي، فنزلت من على الأريكة وجلست على ركبتيها مواجهة للمقعد، وهي تشعر بتأنيب الضمير، وكأنها شعرت بالقلق من أن يصاب المجسم الخشبي بالاختناق. أزالت الوسادة من فوقه وعدلت من وضعه لتجلسه مرة أخرى.

- آسفة.. أنا آسفة أوي.

التفتت بجذعها نصف التفاتة لتواجه المائدة القابعة خلفها مباشرة، وتناولت من عليها فنجان القهوة الفارغ. مدت إصبعها لتغترف تنوة القهوة من القاع، ثم أغمضت عينيها وهي تستحلب مرارة البن بتركيز قبل أن تفتحهما مرة أخرى، وتكسو صوتها نبرة من البهجة وهي تواجه المجسم الخشبي مرة أخرى.

- تعالي نخرج شوية. القلعة في الجو ده هتبقى جنان.

في السيارة وبجانبها المجسم الخشبي الصغير على الكرسي المجاور للسائق، تتمتم: «لا تتعجل في رحلتك بأي حال، الأفضل أن يدوم السفر لسنين طويلة». ترمق من جانب عينها أثناء القيادة الأمواج وهي تثور فيتناثر رذاذها على سور ورصيف الكورنيش بنفس عنف وحرارة الفلامكنو الذي تركت نغماته منسابة خلفها في

المنـزل. تلبـس كلماتهـا نفـس النـبرة المبتهجـة قبـل أن تخرجهـا وهـي تخاطـب المجسـم الخشـبي:

- إسكندرية ماريا وأمواجها غجرية!

تمـر في طريقهـا بالمكتبـة التـي أعيـد بناؤهـا. تتأمـل -كـما هـي عادتها- قـرص الشـمس غـير المكتمـل الإشراق، والسـور الجرانيتـي بأبجديتـه التـي جمعـت شـتات مائـة وعشريـن لسـانًا.

- حتـى هنـا الحـروف ملخبطـة في بعضهـا.. ومنـين نجيـب نـاس لمعنـاة الـكلام يتلـوه؟!

- ...

- بـردو ملكيـش مـزاج تتكلمـي؟! معلـش، هنتكلـم براحتنـا تحـت المطـر بعـد شـوية.

- ...

تكمـل طريقهـا متجهـة نحـو قلعـة قايتبـاي دون أن تهتـم بتشـغيل المسّـاحات للتخلـص مـن آثـار المطـر المنسـال عـلى سـطح زجاج السـيارة أمامهـا. تقـود السـيارة بشـعور الثـور الـذي يـدور في سـاقية. دورات ودوار ودوائـر مفرغـة لا نهائيـة.. ولا يصيبهـا مـن دورانهـا ودوارهـا إلا مزيـد مـن عطـش ولا ترتـوي روحهـا المجدبـة أبـدًا. كـم مـن مـرة قادتها خطواتهـا عـبر نفـس هـذا الطريـق نحـو القلعـة! وفي كل مـرة تعـود بخفـي حنـين. تهـز رأسـها يمينًـا ويسـارًا للتخلـص مـن إحسـاس الـدوار، وكأنهـا بهـز رأسـها بهـذه الطريقـة تنفـي الإحسـاس وتبعـده عنهـا.

تحاول أن تقنع نفسها أنها تمشي في طريق مستقيم ولا تدور حول نفسها. تعرف أن شوارع الإسكندرية قد تم تخطيطها بحيث تكون شبكة الطرق متوازية ومتعامدة بعضها على بعض، وكأنها رقعة شطرنج ضخمة. ينتابها شعور بأنها مجرد واحدة من البيادق التي تحركها قوى وإرادة خارجة عن ذاتها. حاولت المقاومة والتفكير في شيء آخر، لكن تداعي الأفكار قادها من شبكة الطرق إلى شبكة عنكبوت لزجة، كلما ازدادت المقاومة ضدها ازدادت الضحية بها التصاقًا. ربما كان من الأفضل أن تستسلم؟ لطالما اتهمها هو بالهروب والاستسلام لعوالمها الخيالية بدلاً من مواجهة الحقيقة وقطع رحلتها عبر دروب الواقع.

تفقد تركيزها على الطريق أمامها لبضع ثوانٍ، تنتقل خلالها لتتأمل القطرات المنهمرة على الزجاج المواجه لها. في السابق عندما كانت تنتابها رغبة في الهروب، كانت تفكر أنه ربما يكون من المثير أن تقفز إلى ذلك العالم الموازي، المنعكس في البحيرات الصغيرة المتكونة من تراكم قطرات المطر. تشاهدها في الصور وهي تبدو رائقة هادئة، وقد احتضنت في أعماقها كونًا موازيًا معكوس الملامح. تذكر ذات مرة عندما كانت طفلة وأفلتت يدها من اليد الكبيرة التي كانت تقبض على كفها، أفلتت وركضت نحو منتصف الطريق لتتأمل ذلك العالم المنعكس في بحيرة المياه المتجمّعة هناك. لم ترَ سوى منديل قذر وبقايا سيجارة منبعجة، بالإضافة إلى صفحة من صحيفة قد سال سواد حبرها واختلط بالوحل الذي لطخ رذاذه وجهها وملابسها، عندما مرت سيارة مسرعة قبل أن تجذبها اليد الكبيرة للوراء بعنف.

كلما حاولت مقاومة الذكرى، وجدت نفسها دون وعي تسير كالمسلوب الإرادة وتتجه تلقائيًا نحو القلعة. هناك التقوا لأول مرة، وهناك فتحت الصندوق الصغير الذي احتضن بداخله نموذجين من الخشب لجسم إنسان صغير. هناك دارت أحاديث شتى مطولة، وهناك حل الصمت الكبير. هناك تلجأ دومًا كلما علت الأصوات وتداخلت برأسها، وأرادت ترجمة معانيها الذائبة في ضجيج الصمت. قال لها في اليوم الأخير هناك إن الطريق تشعّب، وعليها أن تسلك طريقها الخاص بدلاً من الاحتماء بدليل يقودها عبر دروب غير دربها المقدّر. برفق ونبرة مشوبة بحنان حازم أوضح أن عليها الوصول وحدها، وحتى إن لم تصل فيكفيها الرحلة وما تتخذه لها من زاد. لم تتفهم أبدًا كلامه ذاك ومعانيه الكبيرة الغامضة، التي كان يحلو له أن ينطق بها ببساطة، وكأنه يسرد بديهيات واضحة كالأبجدية. لم تفهم ساعتها سوى أنها باتت تائهة وحيدة. أخذ مجسمًا صغيرًا وترك لها الآخر في صندوقه. بدا لها الفراغ الزائد داخل الصندوق وكأنه هوة من الفناء قد انفتحت واتسعت، لتبتلع المجسّم الصغير القابع منكمشًا في أحد الأركان.

منذ رحل، باتت قلعة قايتباي هي المكان المفضل لها، خصوصًا في فصل الشتاء، عندما يثور البحر وتزبد أمواجه. تجلس على أعلى مكان يمكنها الوصول إليه، والهواء يصفعها، بينما تراقب جنون الموج. لم تعد تسترعى انتباهها بقايا المطر المتكومة في بقع بائسة على الطريق. صار البحر لها هو الحياة، وكلما علت أمواجه وازدادت رقصتها جنونًا ازداد شغفها. وسط تداعي المعاني والأشياء من حولها لم يبق من مفر سوى البحر بجنون موجه الغجري.

لم تـدر بنفسـها إلا وهـي هنـاك، في القلعـة، وقـد جلسـت في مكانهـا المفضـل عـلى السـطح، حيـث يحيـط بهـا البحـر مـن ثـلاث جهـات. كانـت تقبـض في كفهـا عـلى يـد المجسـم الخشـبي بقـوة، وقـد تـدلى باقـي الجسـد كمـن فارقتـه الـروح. تأملـت الأمـواج في رقصتهـا وهـي تصفـع الأحجـار بعنفـوان، وتنـثر رذاذهـا ثـم تتراجـع برهـة قبـل أن تعـاود الكـرّة. رفعـت المجسـم الخشـبي وأجلسـته في كفهـا برفـق، ثـم رفعـت كفهـا لمسـتوى وجههـا وكأنهـما يحدقـان في عينـي بعضهـما بعـض. أدركـت أن القلعـة هـذه المـرة لم تعـد محطـة وصـول وغايـة، بل غـدت نقطـة الانطـلاق ومحطـة الرحيـل. ثبّتـت نظرتهـا عـلى المجسـم الراقـد في كفهـا. بـدت الكلـمات التـي تنسـاب مـن بـين شـفتيها وكأنهـا ضـوء نجـم وصـل إليهـا تـوًّا بعـد سـنوات مـن انفجـاره. كلـمات قرأهـا هـو عليهـا في نفـس هـذا المـكان ذات يـوم، بـدا لهـا بعيـدًا جـدًا.

- لا تخشَ الوحوش آكلة لحوم البشر
ولا تخشَ الوحوش ذات العين الواحدة
ولا تخشَ غضب بوزايدون
لن تجد أيًا من هؤلاء في طريقك أبدًا
إن بقي فكرك ساميًا
إن مست عاطفة نبيلة روحك وجسدك
لن تقابل الوحوش آكلة لحوم البشر والوحوش ذات العين الواحدة
وبوزايدون العاتي
إن لم تحملهم في روحك
إن لم تستحضرهم روحك أمامك

قالتها برقة وقد اكتست نظرتها حنانًا عميقًا قبل أن تقف، لتطوح بذراعها على المدى، وتقذف المجسم الخشبي بأقصى قوة لها، ليقع وسط الأمواج المتراقصة بالأسفل. بدا وكأن روح الموج قد انتقلت إلى الجسد الصغير الذي أخذ يتراقص هو الآخر بجنون وأطرافه تتحرك حركات محمومة. تقاذفته موجة قوية انقلب بداخلها واختفى لبضع ثوانٍ. حبست أنفاسها وهي تراقب بتوجس، حتى طفا على السطح وظهر لها متراقصًا مرة أخرى. ما كادت تزفر بارتياح حتى سحبته موجة قوية للوراء، قبل أن تعود لتصفع صخرة ضخمة وتقذفه معها، ليرتطم بالوجه الصلب البارد. شهقت واحتبس بصدرها الهواء حتى رأته ينزلق عن الوجه الصخري ويتراجع مع الموجة منسحبًا للوراء، بينما هو مستمر في الرقص وحركة أطرافه لا تنقطع. توقفت عن مراقبة الموج. أغمضت عينيها وأدارت له ظهرها وهي تنادي.

- لتكن «إيثاكا» في روحك دائمًا.. الوصول إليها قدرك.

ابتعدت خطواتها وأكملت الطريق وهي ما زالت تحادث نفسها.

- «إيثاكا» منحتك الرحلة الرائعة،
لولاها ما كنت شددت الرحال،
ولم يعد لديها ما تمنحك إياه أكثر من ذلك،
حتى وإن بدت لك «إيثاكا» فقيرة،
فهي لم تخدعك، فمن الحكمة التي اكتسبتها،
والخبرة التي صارت جزءًا منك سوف تفهم معنى أي «إيثاكا».

التالته
هليوبوليس

في الشرفة الصغيرة التي ازدان جانبها بالجهنمية الحمراء، التي تسلقت الخشب البغدادلي، المشقق بفعل الشمس والزمن، والتي تناثرت في جوانبها أصص الفل والياسمين البلدي والريحان، جلست فريدة على كرسي قديم من البامبو، وهي تضع السكر في كوب الشاي، قبل أن تنهض لتقطع بعض أوراق النعناع الأخضر، من إصيص صغير في ركن الشرفة، وتنادي على والدها.

- بابااااا! الشاي هيبرد!

كان الجو يشي بأن اليوم سوف يكون حارًا، رغم أن الوقت لم يزل في الصباح الباكر. نفضت فريدة أوراق النعناع ووضعت بعضًا منها في كل كوب من الكوبين القابعين على المائدة البامبو المستديرة. بينما هي تنتظر حضور والدها، استندت على سور الشرفة تتأمل الشارع أسفلها. كان المنظر الذي تحب تناول الشاي بصحبته كل صباح في طقس يومي خاص بها: قصر البارون إمبان بطرازه الفريد، وحديقته التي أعيدت زراعتها مؤخرًا، وإن ظل القصر نفسه على حاله التي طالها الإهمال والزمن. ابتسمت وهي ترد بهزة من رأسها على البواب، الذي بادر بإلقاء تحية الصباح عليها، وهو يروي الأشجار على الرصيف أمام العمارة، ثم اتجه نظرها تلقائيًا ناحية القصر.

دخل والدها الشرفة وتناول كوب الشاي، ثم وقف بجوارها

واستقرت نظرته على القصر هو الآخر. لطالما حكى لها عنه منذ كانت طفلة. يمسك بيدها ويشير نحو الكيان الأسطوري القابع أمامهما ويحكي. يحكي وكأنه جد من الأجداد، أحد أسلاف الأسرة، له مكانته المميزة، بالإضافة إلى ما يتناثر عنه من شائعات وحكايات غريبة تندرج تحت بند الهيكل العظمي، الذي لا بد من وجود مثله في خزانة كل أسرة، يقبع في الخفاء ولا يتم إخراجه على الملأ. كان يحكي لفريدة عن تاريخ القصر وطرازه المعماري، دون التطرق إلى ما يتناثر عنه من شائعات وحكايات مليئة بالغموض والسحر. التقطت أذنا فريدة تلك الحكايات فيما بعد من شفتي عم صالح البواب وعم سيد العامل في استوديو التصوير، الذي ورثه كلٌ من والدها وعمها عن جدها. كانت تعود لتسأل والدها عن صحة هذه الحكايات، فيكتفي بالابتسام وهو يقول إن ما يريد المرء تصديقه يصير هو الحقيقة بالنسبة إليه.

غمرتهما بقعة الشمس الزاحفة في طريقها اليومي المرسوم عبر الشرفة. ابتسمت فريدة وهي تتذكر التفاصيل التي نقشت في ذاكرتها منذ الصغر من حكايا والدها. كانت الشمس تمر بشرفتهما في رحلة يومية تستغرق بعض الوقت، قبل أن ترحل لتزور شرفة الجيران في العمارة المجاورة، لذا كان من دواعي انبهارها بالقصر في طفولتها أنه قد صمم بحيث لا تغيب عنه الشمس أبدًا، حيث تغمر أشعتها جميع غرفه وردهاته على مدى اليوم. لم تكن تتخيل آنذاك إمكانية أسر الشمس والاحتفاظ بها رهينة طوع أمرك متى شئت. تنبهت من شرودها على صوت والدها وهو يشرب الشاي، فضحكت. كانت هذه إحدى العادات التي ورثها عن جدها. كان

يتمسك بهذه العادة حتى لو لم يكن الشاي ساخنًا. تناولت كوب الشاي الخاص بها، والذي بات بالكاد دافئًا وهي تسأله:

- هتصور فين النهارده؟

كان والدها يضيق بالاستوديو وبالتصوير التقليدي لأشخاص يأتون وقد رسموا وجوههم بملامح محايدة، أو ابتسامة محسوبة، بينما هم يرتدون ملابس لا تقل تكلفًا عن ملامح وجوههم. ترك كل هذا لعمها وتفرغ لهوايته. يصطحب الكاميرا ويتجول في الشوارع، يلتقط تفاصيل صغيرة قد تفوت العين العادية، ويبروزها بعدسته مبرزًا لمعة عين، أو لمسة يد، أو كوم قمامة يحترق بجوار شجرة يقاوم جذعها الاشتعال رغم ما يغطيه من سواد.

- القصر.

أدركت على الفور أنه لا يقصد القصر الذي يطالعانه كل صباح من شرفتهما. كان قد بدأ مشروعًا خاصًا به يوثق من خلاله الجرافيتي والكتابات على أسوار قصر الاتحادية. في بعض الأحيان كانت تصاحبه وتلتقط بعض الصور بالكاميرا الخاصة بها، ثم يقومان بمقارنة حصيلتهما في آخر اليوم. أحيانًا كانت تفاجأ من تطابق الرؤى، وأحيانًا أخرى كانت تشعر أن لكل منهما منظورًا يختلف عن الآخر تمامًا في رؤية ذات المشهد.

- هروح القصر أنا كمان.

وأيضًا دون أي توضيح أو كلام زائد، أدرك هو أنها تقصد قصر البارون، الذي كانت تطلق عليه أحيانًا «قصرنا».

عندما كانت تأتي سيرة والدتها الراحلة كان يحكي لها عن تعلقها بالقصر وعشقها له. بات قصر البارون في مخيلة فريدة مرتبطًا بذكرى والدتها بطريقة أو بأخرى. كان والدها يحكي لها.. عندما دعا البارون إمبان السلطان حسين كامل لحضور حفل افتتاح القصر، انبهر السلطان لما صعد إلى البرج ورأى القاهرة بأكملها تمتد أمام عينيه حتى أهرامات الجيزة. نهشت الغيرة قلب السلطان الذي لم يرق له وجود قصر أعلى وأفخم من قصره في عاصمة حكمه، فأراد أن يستولى على قصر البارون تحت مسمى الهدية. رفض البارون وقام ببناء قصر آخر مجاور لقصره في زمن وجيز، وأهداه للسلطان، الذي أبى أن يقبل الهدية، وصمم على الحصول على القصر الأصلي. عند هذا الحد من الحكاية كان الأب يقوم بمحاكاة رد فعل والدتها التي كانت تزم شفتيها وتقلب الشفة السفلى قليلاً، كمن يعبّر عن الاستياء من تصرفات طفل صغير مشاغب، وتتغير نبرة صوته لتوحي للطفلة الصغيرة آنذاك بأنه يتقمص أسلوب والدتها في الكلام، بالإضافة إلى الإيحاء بوجود حكمة ما ودرس مستفاد من الحكاية.

- دي مش أخلاق سلاطين!

أدركت فريدة بفطرتها دون توضيح من والدها أنه كان يحاول

بحكاياته تلك أن ينقل لها جانبًا خاصًا من جوانب والدتها، التي ربما لم يطلع عليها سواه. كان حبه للقصر نابعًا من حبها هي له، وبعد رحيلها بات القصر امتدادًا لها، حاول بكل الطرق جعل فريدة جزءًا منه. لكن الذي لم تفهمه فريدة سوى لاحقًا هو سر تعلق والدتها الراحلة بالقصر وما كان يمثله لها.

كانت الصغيرة تعرف من حكايات والدها أن برج القصر كان يدور كل ساعة حول نفسه دورة كاملة، على قاعدة متحركة، تتيح للجالس بداخله رؤية ما يحيط به من جميع الاتجاهات.

- السلطان طلع البرج ومشافش قدام عينيه غير أطماعه يا فريدة. لكن البارون بص على نفس المشهد ولمعت في عينيه رؤيا من الجمال. شاف قدامه هليوبوليس، وحوّل اللي شافه ده لواقع ملموس.

ويمضي والدها في الحكاية، يتحدث وفي عينيه ونبرة صوته درجة من التركيز والإلحاح.

- هليوبوليس يعني مدينة الشمس يا فريدة. الشمس اللي مكانتش بتغيب عن القصر أبدًا.

يتحدث وهو ينقش في وعي الصغيرة دروس الشمس، التي تشرق كل يوم لتحتضنهم، ثم لا تلبث أن تغيب لتحتضن الغير، قبل أن تعاود شروقها مرة أخرى. توزع ضوءها ودفئها على الجميع،

بالتساوي ودون تمييز. يجعلها بحكايته ترى نفسها بعين العقل في البرج وهو يدور دورته الكاملة، فتحتوي العين كنيسة البازيليك ذات الطراز البيزنطي، والمعبد اليهودي في شارع المسلة، بالإضافة إلى المآذن التي ترتفع مبتهلة للسماء. تنوع وتعددية في الوحدة، تمامًا كما في طابع القصر المعماري الذي جمع بين طراز عصر النهضة في السور والتماثيل الخارجية، والطراز الكمبودي للقصر نفسه، الذي تزينه تماثيل بوذا ووحوش نصفها على شكل حيوانات والنصف الآخر آدمي، بالإضافة إلى تماثيل الأفيال.

- الأفيال يا فريدة. الأفيال!

يقولها وقد تقمص والدتها تمامًا، فتتسع عيناه وتزدادان عمقًا وتلتمعان ببريق من يريد تأكيد شيء بالغ الأهمية.

- الأفيال ليها ذاكرة، مش بتنسى يا فريدة. خليكي زيهم. خلي ذاكرتك ذاكرة الأفيال.

اصطحب والدها الكاميرا الخاصة به وذهب يسابق الزمن، كي يلتقط ما يستطيع التقاطه من صور قبل دهان السور، الذي بات طقسًا متكررًا. تغطيه الرسوم والكتابات المختلفة، ثم لا تلبث أن تمسح على عجل، ويتم تغطيتها بدرجة لون كريهة باهتة المعالم، تقبع في مكان ما بين الأصفر والبيج. تناولت هي الكاميرا الخاصة بها وتوجهت نحو قصر البارون. كان من المعتاد أن من يرغب في الدخول يقوم «بالتفاهم» مع الأمن هناك، لكن في حالتها كانت

تعتبر القصر فعلاً قصرهم، حيث إن والدها كان على علاقة طيبة بالقائمين على حراسة المكان، وكان يدخل أحيانًا للتصوير هناك وهو يصطحبها معه، بحيث بات يعرفها العاملون بالمكان. ألقت التحية على من لمحتهم من الحراس وهي في طريقها نحو سلالم القصر، بأُلفة من يلقي التحية على حارس العقار وهو في طريقه إلى شقته. تمهلت في صعودها الدرجات كما هي عادتها، وتأملت الواجهة بتمعّن، بينما تلمس أناملها تمثالاً من التماثيل التي تزين جوانب السلم. توقفت نظرتها على الأفيال التي تزين القصر وابتسمت. لكنها لم تأتِ هذه المرة لالتقاط صور الأفيال.

دفعت الباب الذي انفتح بيسر يشي بسهولة «التفاهم» مع الأمن، وبأنها ليست الوحيدة التي دخلت مؤخرًا. لسبب ما بدا لها أن المكان معتم إلى حد ما، بالرغم من الشمس التي سطعت بالخارج. تتوه قليلاً مع الذكرى.. ذات يوم كانت الشمس أسيرة هنا. ربما كانت العتمة في هذه الحال رحمة، حيث أخفت إلى حد ما الخراب والإهمال والخربشات على الجدران، والاسبراي الذي شوّه حوائط كانت ذات يوم تحمل رسومًا مأخوذة من مايكل أنجلو ودافينشي ورامبرانت. توقفت فريدة في منتصف القاعة الفسيحة، وأشرعت الكاميرا ومضت تلتقط بعدستها أسماء محبين، غالبًا ما تفرّق بهم الشمل، وعلامات عجيبة مثل صليب النازي المعقوف وأشكال نجوم خماسية. ابتسمت بسخرية مريرة وهي تدرك المفارقة: الخراب والقبح متروكان ليتفشيا ويتزايدا دون حتى أدنى محاولة لإخفائهما ولو بطبقة من الأصفر المتماهي مع البيج، بينما التعبير الجمالي عن موقف أو رأي -سواء اتفقت أو اختلفت

معه- يُمسح بانتظام ويتم إعادة إنتاج الذاكرة التي ترضي القابعين خلف أسوار ذلك القصر الآخر، أيًا كانت الجهة التي ينتمون إليها. ذاكرة الأسماك، وزفارتها أيضًا!

تفهم الآن أكثر من أي وقت مضى سر تمسك والدتها بالأفيال، وسر تلك النبرة لوالدها وهو يؤكد عليها.. عليك بذاكرة الأفيال! كانت الأم ومن بعدها فريدة تعشقان هليوبوليس، بطرازها المعماري الفريد، الذي مزج بين الشرق والغرب، واختلطت فيها الأشكال المعمارية من عمارات بواكي ذات طراز مورسكي وفيلات من النمط الإيطالي، بالإضافة إلى قباب عربية ومنازل من الطراز الإنجليزي، كل ذلك في تناغم وانسجام تام. كانت عينا فريدة تضيقان وتتقلص ملامح وجهها، وكأنها تشعر بألم جسدي فعلي، عندما تشاهد العمارات القديمة وقد شوهتها اللافتات المبهرجة الصارخة، وأجهزة التكييف التي تبرز منها كقروح متقيحة تشوه الوجوه والملامح، وكأن الخراب الداخلي للقصر توغل وامتد للحي بأسره. لم يكتف التشوه بما طاله من معمار، بل توغل داخل النفوس ذاتها. وكأن برج القصر عندما توقف عن الدوران، توقفت الأعين عن استيعاب المشهد بأكمله. لم تعد الرؤيا تحيط سوى بأفق محدود ضيق، ويزداد ضيقًا يومًا بعد يوم. تفوح رائحة الزفارة بقوة أكثر، ولا يسع أولئك الذين تتسع رؤيتهم لكامل المشهد سوى التمسك بذاكرة الأفيال، في مقابل ذاكرة السمك.

تستعيد عبارة والدها.. ما تريدين تصديقه يصير هو الواقع بالنسبة إليك. الواقع الذي تريد هي تصديقه كان ذلك الواقع الذي

يتم محوه ومحاربته بوحشية. كان سلاحها الوحيد للمواجهة هو عدسة تلتقط بها أدلة تبرهن على وجود ما يتم اغتياله وإنكاره، وتلك الأفيال التي عاشت صامتة تزين جدران قصر طالته الزفارة لكنها ما زالت تتذكر. خرجت مرة أخرى في طريقها للعودة. كانت تريد طبع ما التقطته من صور لدراستها بتمعّن. بدا لها أن هناك فارقًا جوهريًا بين هليوبوليس التي عشقتها والدتها والتي ورثت هي حبها، و«مصر الجديدة». وهي تصعد درجات سلم عمارتها في الطريق لشقتها مرت بباب شقة تلك الجارة ذات الشعر الأصفر الفاقع الذي تكاد تفوح منه رائحة ماء الأكسجين. قامت الجارة بتبديل باب الشقة القديم بشرّاعته ذات الحديد المشغول العتيق، وركّبت بدلاً منه بابًا من تلك الأبواب المصفّحة الحديثة، له لون الدم القاني. بدا الامتعاض على وجه فريدة، وتجعد أنفها وكأنها تشم رائحة الزفارة بالفعل، وتمتمت «مصر الجديدة»! وصلت إلى باب شقتها الذي غطت حديد شراعته في بعض الأماكن طبقة من الصدأ الدافئ اللون. كانت الشقة مؤثثة بأسلوب جمع بين عدة طرازات من المفروشات والديكور، فتنوعت ما بين عربي إسلامي وفرعوني وهندي، بالإضافة إلى الأوروبي والكلاسيكي، ولم تخل كذلك من المودرن.

توجهت نحو السفرة حيث وضعت الكاميرا، وأراحت رأسها على المائدة بجانبها. لم تدر كم من الوقت لبثت في ذلك الوضع، حتى سمعت الباب ينفتح ووالدها يدلف للشقة. رفعت رأسها ودون مقدمات قالت:

- علمني إزاي أرقص يا بابا.

تعجب من قولها المفاجئ وبدا على ملامحه عدم الفهم. لم تشرح هي شيئًا، بل تعلّقت نظرتها المحمّلة بالتصميم، بنظرته التي بدأت تتحول من التعجب إلى الحنان، وقد فهم ما الذي تعنيه. هو الذي حكى لها من قبل أن والدتها حين كانت تشعر برغبة في التشبث بواقع تشعر به يهرب منها يومًا بعد يوم، كانت تذهب إلى القصر لترقص هناك. تغمض عينيها حتى ترى محيطها كما كان من قبل في أوج تألقه. ترى بعين القلب قصر البارون في قلب هليوبوليس، ليس قصرًا عتيقًا مهملاً في شارع من شوارع مصر الجديدة. تمد ذراعيها بجوارها مفرودتين عن آخرهما، بينما ترفع ساقًا وتمدها للأمام بخفة، وهي تدندن لحنًا يبدأ بطيئًا ثم يأخذ في التسارع تدريجيًا مع حركات الساقين اللتين يتبدل وضعهما بالتناوب. رقصة زوربا. تارة تمتد ساقًا للأمام قبل أن تنثني للخلف مرة أخرى وتمتد الثانية بدلاً منها. خطوات جانبية، يمينًا، ثم يسارًا. تنحني الركب لتقترب من الأرض بعض الشيء ثم تنهض لتدور. تدور وتستمر في الدوران. تفقد توازنها إثر انكسار كعب حذائها، غير أنها تستعيد توازنها بسرعة. تضحك وهي تخلع فردة الحذاء الأخرى لتكسر كعبها هي أيضًا وترميها وراء ظهرها، بمرح الراقصين اليونان الذين يحطمون الأطباق أثناء رقصهم. رغم الانكسار ما زالت تقاوم بشموخ مستمدة طاقة غريبة للرقص من ذاكرة الأفيال. ترقص وتدور دورات كاملة تتسع لتشمل المدى بأكمله.

- علمني إزاي يا بابا.

تكررها وهي تمد يدها لتضعها في كفه المفتوحة الممتدة.

-٢-

لسه في سحر في العالم.

سحر الموجي
ن

الأوله
جلا جلا

جلست الصغيرة ذات الأعوام الثلاثة عشر والبشرة القمحية وعينيها اللتين في مثل خضار الحقول الممتدة حد الأفق، تتأمل حلقة الأطفال التي أحاطت بها تحتضنها وتحتضنهم. ارتفع نشيج وشهقات وارتعشت الأجساد الصغيرة المتكومة الملتصقة بعضها ببعض.

- ضربونا يا نجيل وبعتروا حاجاتنا على الأرض وداسوها.
- خدوا أبويا في البوكس يا نجيل لما حاول يحوشهم، وأمي لوحدها في الدار.

سرحت العينان الخضراوان في اللا شيء قبل أن تعود إليهما التماعة تصميم قوية ذات مغزى. ضاقت الحلقة من حولها أكثر، وقد أدرك الأطفال معنى نظرتها تلك التي يعرفونها جيدًا. أتى صوتها قويًا رنانًا كأجراس تدق إنذارها الأخير، وحالمًا حنونًا عذبًا كرقرقة الماء في ذات الوقت.

- لما مصاص الدماء أخد شكل الديب ونزل يهاجم الغنمات جريوا واتفرقوا. شوية هربوا في الغيطان وشوية راحوا ناحية المعبد القديم.

ضاقت الحلقة حولها أكثر وخفتت الأصوات إلا من بقايا نهنهات مكتومة.

- جريت نعجة سودا على ركن المعبد ونادت بعزم ما فيها «انجدينا يا ستنا.. الظلم طاح ما خلى».. نزلت سخمت من الجدار واتمطعت تنفض عن نفسها الزمن، نطت اللبوة وطارت وطاحت وورا الديب راحت.

الأعين الصغيرة من حولها محدقة متسعة ملتمعة، والأيدي متشابكة تتشبث بها أو بطرف ثوبها، كما تتعلق الأعين المتسعة وهي ترقب شفتيها، تتشبث بكل حرف يخرج من بينهما.

- اللبوة شقت صدر الديب وصار قلبه بين إيديها. مشت بيه والدم بيقطر وراها أثر يروي قبور كل الغنم اللي قتلهم الديب ويطلع مكانه زهور. عند المعبد القديم كانت ماعت مستنية. خدت القلب التقيل في ميزان كفوفها وعصرته نزل نبيذ الدم قربان توبة وندم، وروى أرض المعبد، زهزهت وزهرت جنينة ورد.

غيمة سحرية وردية اللون أحاطت بالحلقة الصغيرة وعزلت الجميع عن الحقول المنهكة والسماء الرمادية. أينعت في القلوب الغضة ألوان الربيع، بينما احتضنتهم باستت كقطة يتمسح بها صغارها وتحتويهم.

هبت ذات العينين الخضراوين فجأة، تمطعت ونفضت من حولها الصغار الذين تعلقوا بذيلها. أسرعت الخطى بثبات وعزم تجاه الأرض الخالية المجاورة للمعبد القديم. بدا الخلاء الممتد كساحة

معركة تناثرت خلالها الأشلاء. تحف صغيرة تكسرت وثمار مختلفة دهستها أقدام غليظة، وفي ركن الساحة سيارة سوداء التمعت تحت وهج الشمس. تدرك جيدًا من بالداخل رغم الزجاج الأسود الذي يخفي ما وراءه. تسللت تحتمي بأعمدة المعبد، تداريها بعيدًا عن الأعين المختفية خلف النظارات الشمسية الداكنة وزجاج السيارة الأسود. تعلقت عيناها بالرسوم الملونة على الجدران والأعمدة. رأس اللبؤة وريشة النعام. نفس عميق، زفير، ثم خطوات صامتة كقط يتسلل.

دارت دورة واسعة حتى باتت خلف السيارة، منحنية منكمشة متكورة بعضها في بعض كقبضة تستعد لتسدد وتنطلق. بخفة ومهارة أفرغت إطار السيارة من الهواء الذي تسرّب ببطء كدم يسيل من قلب أسود ضخم. زحفت تحت السيارة، وعندما انفتح الباب ونزلت ساقان داخل سروال رمادي داكن وقد ظهر أسفله حذاء أسود لامع، زحفت على بطنها تجاه الباب المفتوح وانتظرت برهة. دار الحذاء باتجاه الإطار المفرغ، بينما امتدت يد صغيرة خلسة، واختطفت الحقيبة الجلدية السوداء من على كرسي السيارة قبل أن تنطلق لتركض بأقصى سرعة، تطاردها أقدام مسرعة ولعنات لم تلبث أن تبهت وتتوقف على أثر صوت قوي آمر. كانت على يقين أن الأصابع السمينة تضغط أزرار الهاتف المحمول بينما هي تطلق ساقيها للريح.

منهكة تلهث متشبثة بغنيمتها، قادتها الخطى مرة أخرى للحقل، حيث الصغار متحلقين في الانتظار. شيء ما في طلتها جعل الجميع

ينهض ويتبعها في صمت، كالأطفال الذين تبعوا عازف الناي السحري في القصة. لف الجمع أرجاء القرية، وعند كل باب كانت تتوقف، تفتح الحقيبة وتوزع من الغنائم على مرأى من الأفواه المفغرة والأعين المتسعة دهشة وانبهارًا. طال الطابور وامتد من خلفها حتى لم تبق دار من الدور إلا وانضم إليها منها أتباعًا. خلت الحقيبة عندما وصلوا الساحة التي تتوسط القرية، ووصلت لآذانهم أصوات السارينات والسيارات القادمة من بُعد. رفعت ذراعيها عاليًا، والحقيبة الخالية أعلى رأسها تاجًا وقربانًا لقرص الشمس الذي امتدت أشعته كفوفًا تحتضن الأكف، والقبضات التي ارتفعت إليه من حولها. ضاقت حولها الحلقة مرة أخرى. الذئاب المحيطة تتربص وروح اللبؤة سكَنت الحشد، بينما الحقول الممتدة ورسوم المعبد والشمس تحيط بالجميع.

التانيه
حدث في مثل هذا اليوم

جلس هيرودوت على كرسي خشبي ارتكن عند ناصية الرصيف أمام المقهى. عند قدميه جلس الكاتب المصري على حافة الرصيف متساقط الطلاء ذي اللونين الأبيض والأسود الحائل، شاهرًا قلمه في وضع الاستعداد، وقد بدأ يتململ من وضع القرفصاء. تنحنح هيرودوت، تناول مبسم الشيشة التي تصاعدت منها أنفاس دخانية بعبق فاكهة عطنة، سعل قليلاً قبل أن يتنحنح مرة أخرى، وبصوت له رنين جرس عتيق مشروخ أملى كلماته للقلم المعلق في انتظار أوامره.

- في عام ١٩٧٤ قامت الصربية المدعوة مارينا أبراموفتش بتجربة.

وعلى مرمى البصر من ناصية المقهى، عند رأس الدلتا وفي تمام الصفر بتوقيت التاريخ، مع مراعاة فروق التوقيت للحكايا الأخرى، كانت امرأة تتشح بالسواد تسير بخطى تتسارع كلما مضت قدمًا حتى وصلت إلى قمة الرأس واستكانت. واجهت المارة بهدوء، بينما السواد ينزلق عن أكتافها بنعومة.

- قررت الوقوف أمام الجمهور ست ساعات متواصلة دون حراك، وبجوارها مائدة افترش سطحها أدوات تنوعت طبيعتها وتعددت، متضمنة مقصًا وريشة ووردة لها أشواك وعسلاً، بالإضافة إلى مسدس ورصاصة واحدة.

تدريجيًا بدأت الجموع تحتشد حول تلك التي تحدث وخلعت صمت السواد شاهرة إياه سلاحًا في الوجوه. توقف الكاتب المصري عن التدوين لحظة وهو يحرك مقعدته التي أصابها الخدر، وبينما هو يطرقع إصبع قدمه الكبير بنفاد صبر، لمح بطرف عينه ما يدور عند الحشد المجاور. تعالت الأصوات والصيحات وبلغت مسامعه، بينما بدا هيرودوت مستغرقًا في أفكاره الخاصة، بحيث واصل الإملاء دون أن يلحظ توقف التدوين.

- أدرك الجمهور أنه يمكنه أن يفعل بها ما يشاء. لم يستمر موقفهم المتفرج السلبي طويلاً، إذ ما لبثوا أن مزقوا ملابسها، رشقوا أشواك الورد في بطنها وصوّب أحدهم المسدس نحو رأسها.

استمر الهرج والصياح عند رأس الدلتا. تعالى اسم أنثى الأسد وارتفع من أكثر من فم من الأفواه المفتوحة الجائعة المصابة بالسعار.

عاد قلم الكاتب المصري إلى خربشاته. لم يلحظ هيرودوت ما يدوّنه في أوراقه.

- شوف الخريطة تلاقيها فاتحة رجليها
ربك خلقها كده راح تعمل إيه فيها!

اتخذ الجمهور شكل رأس السهم المفتوح، وقمته مصوبة نحو الصدر المفتوح في مواجهته. من بين طيات السواد المنزلق عن

الأكتاف أشرق رويدًا رويدًا جناحان يكسوهما زغب خفيف، بدأ يتسارع في النمو كأعشاب الصحراء بعد موسم المطر. خلال لحظات كان الجناحان يغطيهما ريش طويل كثيف شاهق البياض.

انشغل هيرودوت بأنفاس الفاكهة العطنة التي أحاطته بغلالة دخانية، لم ير من خلالها ما يدور على مرمى البصر. ركز الكاتب المصري قلمه ليلتقط ما يستطيعه من ذلك الصوت الذي علت نبراته بانسياب الماء وقوته. أزعجه في البداية تداخل صراخ الحشد الغاضب، لكنه لم يلبث أن لاحظ ما يشبه نوتة موسيقية مموجة كنهر مرتسمة في الهواء، تنساب وتتعالى نحو السماء كلما ازدادت النبرات تدفقًا ما بين رقرقة وخرير وهدير، فنقل النوتة التي حملتها النسمات العابرة من بين ريش الجناحين إلى أوراقه.

لم يفقه القوم النغمات المرتسمة أمام أعينهم وقد أحاطت بهم أمواجها. انعكست وضعية رأس السهم بحيث باتت فتحته في المواجهة، في كل جانب من الجانبين ساق طويلة ممتدة تتقدم. أحاطت بها الساقان. التفّت النوتة الموسيقية في الهواء حول نفسها في رقصة أخيرة، قبل أن يدور معها الجناحان بخفة وتختفي صاحبتهما في قلب السواد الذي هبط من أعلى وابتلع الحشد. نقش الكاتب المصري بضع نغمات أخيرة قبل أن يلملم أوراقه بعناية، بينما هيرودوت يصفق بيديه صائحًا في طلب الحساب.

التالته
أسفار الجبل

(١)
سفر الرؤيا

ونادت من أعلى الجبل وحيدة، «أن يا قوم إني أبصر ما لا تبصرون».

من أقاصي الأرض شرقًا وغربًا تأتيها أطيافهن، جداتها الأوليات، الزرقاء والقديسة. العين مسمولة والجسد محترق لكن الصوت يأتيها مع الرؤيا.. ما هذا بزمان الرؤيا ولا زمان الأنبياء.

تأتيها الصيحات من الوادي الأعمى. أن اصلبوها وحرقوها وانثروها عبر كل صحارى الشتات وكل موج أسود عات، فقد صبأت عن دين القوم وديدنهم، وخالفت شرعهم الذي يقضي بأن لا تسمع أذن نغمًا، ولا ينطق فم بكلم، ولا ترى عين ضوءًا أبدًا.

نادت من أعلى الجبل وحيدة، أن يا قوم لا تعمى البصيرة. مسمولة العين محترقة الروح والجسد، تنادي وما زالت الزرقاء والقديسة تأتيانها بحزن الأنبياء في زمن الردة.

(٢)

سفر الموت

مغمضة العينين على اتساعهما نادت من قمة الجبل «يا قوم ألا أنبئكم بسر عظيم؟ في الحلم الحياة لو تعلمون».

مشرعة أعينهم على الأجداث، أتاها نداؤهم من وادي الموت، قالوا ما نحن من نسل الذي ألقي في غيابات الجب وما نحن بقوم للرؤيا يعبرون!

يتقيؤون أحرفهم، يأكلون ما يقيؤون من أفواه بعضهم بعض ثم يعودون ليتقيؤوه مرة أخرى، كأبقار تحيا حالة اجترار لا نهائية، تردد أصداءهم السماوات الكالحة. يحيون سبعًا عجاف يليها سبع أخريات مستنسخات من الموت، ولا تزورهم أبدًا السبع السمان.

يوم عقد سدنة المنون قرانه على الوادي الحزين أقاموا طقوسهم الوثنية في معابد الردى، ونادوا الموتى أن ادعوا ثبورًا كثيرًا. ينتشرون من الأجداث، محاجرهم حفر داكنة بلون الطمث الفاسد، فارغة يسقط في فراغها الحلم دون قرار.

تخترق روحها ألف ألف مقلة خاوية، تتكاثر نظراتها وتتغلغل فيها كديدان سوداء صغيرة تنخرها من الداخل. قشروا الجفون كما البرتقالة، أشرعوا الرموش رماحًا مسنونة تندب في الحدقة، تخدش في قلبها الحلم. اقتلعوا المآقي من محاجرها وحملوها على أسنة الأهداب وطافوا بها الوادي.

على خلاف محاجرهم الخاوية كانت محاجرها مُترعة بزيت الحلم الذهبي الذي حملها كالفلك فوق طوفان الموت اللزج، كالصديد تفوح منه رائحة القيء الذي اجتاح الوادي حتى استوى بها على قمتها تنادي.. «في الحلم الحياة لو تعلمون».

(٣)

سفر الوداع

مـن قمـة الجبـل نـادت.. «يـا قـوم جئتكـم بحنـان وزكاة»، فلـم يلـب أحـد النـداء. شـقت الصـدر عـن القلـب محمـولاً بـين الكفـين المدودين قربانًـا فلـم يتقبـل منهـا. أتاهـا سـيزيف صاعـدًا مدحرجًـا عذابـه الأبـدي، فهبطـت هـي تسـعى الخطـو حثيثًـا فـوق المـاء حتـى تصـل أعـماق الـوادي.

ممـدودة الكفـين مـا زالـت، يحدثهـم القلـب مـن مهـد الكـف فـلا يفقهـون حديثًـا. تمـد الأنامـل تمسـح بهـا فيرتـد أعمـى البصـيرة بصـيرًا.. تمسـح مـرة أخـرى فتحيـي ميـت الـروح وتشـفي سـقيم الفـؤاد. تبسـط لهـم مائـدة سـماوية فيهـا للـروح امتـلاء مـن بعـد جـوع، وللفـؤاد شـبع مـن بعـد مخمصـة. تخلـق لهـم مـن طـين الألم مزهريـات الفـرح وتنبئهـم بمـا يدخـرون في صدورهـم.

لكـن وادي الجـور يـأبى أن يمتلـئ قسـطًا وعدلاً. توجـوا الجبـين بأكاليل الشـوك وحملـوا الظهـر الصليـب. دفعوهـا لاتبـاع خطـى سـيزيف، صاعـدة قمتهـا حيـث دقـت أكـف الظلـم المقبوضـة المسـامير في الأكـف الممـدودة.

تلقفت ماعت القلب الصاعد للسماء، وضعته في كفة وأفئدة الوادي في كفة.. فرجحت كفة القربان المنبوذ. بيد تحتضن مفتاح الحياة والأخرى تقبض على صولجان الحكم، توجت القربان بريشتها بينما دوت بروق السماء نارًا ونورًا، وهمت سيولها طوفانًا يكتسح. قست قلوبهم بينما تشقق حجر الجبل بعد أن زلزلت الأرض زلزالها، فأصبح عاليها سافلها وأمطروا حجارة من عذاب موعود.

احتضن الجبل الوادي بين حناياه، علّ الذي أخرج الماء من الصخر يومًا يبعث من أحضانه قومًا يجيبون النداء الذي ما زالت السماء تردد أصداءه.

-٣-

مقهى، وأنت مع الجريدة جالس
في الركن منسيًا، فلا أحد يهين
مزاجك الصافي
ولا أحد يفكر باغتيالك
كم أنت منسي وحر في خيالك!

محمود درويش
مقهى وأنت مع الجريدة

الأوله
تلصص

موسيقى خفيفة منبعثة من السماعات المثبتة في الأركان تدغدغ أذنها، بينما مرارة الاسبريسو الساخن بدون سكر تستقر على طرف لسانها. المعلقات على الجدران بألوانها ونقوشها التراثية ورائحة القهوة والهمهمات المنخفضة للآخرين التي تقطعها من حين إلى آخر ضحكات متفرقة، كلها تضفي على المكان جوًا حميميًا. تفتح مسام حواسها عن آخرها لتتشرب محيطها بنهم. تضع الفنجان على سطح المائدة المستطيلة ثم تتوجه بالحواس قبل الجسد، نحو الأرفف التي زينت الجدران في مقهى الكتب الصغير.

تمسح النظرة العابرة كعوب الكتب التي تآكل بعضها وبهت بعضها وتجعد بعضها. تلعب لعبة روليت روسي خاصة بها. تغمض عينيها وتلتقط كتابًا عشوائيًا. تقلب الصفحات وتستنشق بعمق. تفتح عينيها وتعود لمائدتها، ثم تنزلق في مقعدها مادة ساقيها للأمام قبل أن تلج العالم الذي بين يديها. نافذة خاصة تتلصص منها لا على الكاتب فحسب، بل أيضًا على من تجول بين هذه الصفحات قبلها.

الغلاف تحوّل من الأبيض إلى الرمادي الفاتح واصطبغت الأركان التي بليت وانثنت بصفرة داكنة. ديوان شعر تموجت الصفحة الأولى منه بما يوحي بكف بللها العرق وتركت انطباعها فوق الورق الأصفر، بينما الركن العلوي الأيسر علته كلمات إهداء، كتبت بحبر أسود وحروف بدت أنها بيد رجالي.. «إلى شقي وشقيقة الروح». ترى هل العرق من اليد التي خطت الكلمات أم من يد من

أهديت إليها الكلمات؟

قلبت الصفحات قبل أن تتوقف عند صفحة ثني ركنها الأيمن. القصيدة بعنوان «روح». تتساءل مرة أخرى أي يد ثنت الصفحة، قبل أن تقلبها وتلمح رسمًا صغيرًا خط بالقلم الرصاص على هامش صفحة تالية. شكل حلزوني مركب من دوائر متداخلة كدوامة بلا قرار. صفحات أخرى تموجت من الكفوف المبللة بالعرق، ثم رسم في أحد الأركان بالقلم الحبر الأحمر. شبكة عنكبوت دقيقة التفاصيل رسمت بتركيز واضح. ثلاثة خطوط وضعت بنفس القلم الأحمر تحت كلمة في وسط الصفحة.. «المستحيل». كانت اليد التي خطتها تضغط بقوة حتى حفرت أثرها على الصفحة التي تليها. شيء ما بارز بين الصفحات جعلها تقلب حتى تصل إلى نهاية الكتاب. زهرة جافة حائلة اللون اصطبغت أطرافها بالصفرة الداكنة مثل غلاف الكتاب. عنوان القصيدة التي وضعت عند صفحتها الزهرة «فراق».

إحساس غريب انتابها وأشعرها بوجوب إغلاق الكتاب احترامًا لما تبقى من خصوصيته. أصدر المقعد الذي دفعته للخلف صوتًا وهي تنهض متوجهة نحو الأرفف مرة أخرى. خدش الصرير العالي حميمية الهمهمات الخفيضة المغلّفة بنكهة القهوة الساخنة. الفراغ الذي تركته منذ دقائق وسط رف الكتب بدا غير ملائم الآن. سحبت بعض الكتب للأمام، وسدت كتابها برفق في الخلف بين الجدار والكتب المسحوبة، ثم دفعت الكتب للوراء مرة أخرى وضمتهم معًا لسد الفراغ الذي خلفه كتابها بينهم.

التانيه
راحة

لم يدع زحام البشر على الموائد حيّزًا للحميمية، كما لم تترك الضوضاء والثرثرة مساحة خصوصية للأحاديث المتبادلة. تسللت لسمعها الكلمات من الطاولة المجاورة في المطعم المزدحم.

- ده بيعزك وشايلك في عينيه من جوة!

تمتمت بصوت خفيض: «على كفوف الراحة»، وسرحت تتأمل الأيدي المتشابكة على السيقان أو تحت الذقون، الأيدي المنشغلة بأغراض صغيرة مختلفة تعبث بها بعصبية، الأيدي التي تنقر أناملها على أسطح الموائد، الأيدي التي تتحرك مع حديث أصحابها، والأيدي التي تقبض على الملاعق والشوك والسكاكين وتصدر ضجيجًا يضاف إلى رتابة الضوضاء المحيطة.

- ليه الكل بيغني للعيون بس، مع إن الإيدين ممكن تتكلم وتقول كتير هي كمان؟!

النظرة المسددة إليها من بضعة أزواج من الأعين المحيطة، تركت فوقها علاماتها اللزجة من الدهشة والانزعاج والفضول، ما نبهها أن طبقة صوتها علت أكثر مما يجب، وأن الضجيج السائد فشل في تغليفها وجعلها جزءًا متماهيًا مع الكل. خفضت نظرتها إلى يديها هي وسرحت مرة أخرى.. لو كانت الأعين هي النوافذ التي تطل منها الروح فما اليدان إذن؟ درجات سلم تعبر منها للآخر؟ تمد يدك لتصافح يدًا أخرى فتدخلك عالمها الخاص من ملمسها،

قبضتها، هيئتها.. هناك يد دافئة ترحب بك، تحتضنك، تحتويك.. وأخرى يشع منها الصقيع الكامن في القلب، تلفظك في ذات اللحظة التي تلامس أناملها أناملك.

تجوّلت نظرتها متفحصة اللوحات المعلقة على الجدران.. بدت متنافرة لا يجمع بينها هدف أو طابع مشترك، ابتاعها شخص على عجل لملء فراغ أكثر منها لملء مشاعر. أغمضت عينيها وشرعت تلعب لعبتها الأثيرة.. استبدال العالم المحيط بعالمها الداخلي الخاص. تلك اللوحة الباردة لزهور متنافرة الألوان وقد ارتمت بجوار مزهرية محطمة استبدلتها عين العقل بأخرى بها يد فنان تشكل من الطين حياة، تتخلق بين الراحتين اللتين احتضنتا الكتلة الطينية بحنان إناء يحتوي زهورًا تبحث عن مأوى. اللوحة الأخرى التي بها عجوز وحيد يولي المشاهد ظهره، ميممًا بصره صوب بحر أسود هائج، رسم العقل مكانها صورة لكف عجوز تغضن جلده بسنوات متراكمة ويحكي كل أخدود فيه قصة، وقد احتضن كفًا أخرى بضة لم تخطها التجاعيد بحكاياتها بعد، وإن حكت بعض الخدوش الصغيرة حكاياتها الخاصة. ارتفع الكفان المتعانقتان لأعلى وبدت في الخلفية سماء زرقاء صافية وسحابة بيضاء وحيدة كالقطن المندوف. لوحة ثالثة انتبذت ركنًا قصيًا وقد طل منها مشهد بدا وكأنه قد رسمته ريشة أحد المستشرقين.. جارية سوداء نكست نظرتها في الأرض بينما يد النخاس البيضاء ارتفعت بجوارها راسمة علامات في الهواء وكأنها تحض المشترين على تأمل البضاعة بتمعّن وإدراك قيمتها. على الفور انمحت الجارية واليد والأعين المحملقة.. حل محل ذلك المشهد كف سوداء ناعمة وقد استقرت

في راحة بيضاء خشنة بعض الشيء، وقد تشابكت الأنامل مشكلة ما يشبه البازل وقد اكتمل تركيبها، وأحاط بالكفين هالة من ضوء غير محدد المصدر.

- حاسة بإيه يا ترى اللي مخليكي مغمضة وسرحانة كده؟

احتضنتها النبرة الدافئة التي تحمل بين طياتها بسمة قبل أن تفتح عينيها وتمد يدها لتستقر في دفء الراحة التي امتدت لها وتبتسم هي الأخرى.

- راحة!

التالته
غربة

امتزجت المقاعد الخشبية البسيطة والموائد الصغيرة ذات السطح المعدني مع الأطقم البامبو التي علت مقاعدها وسائد مريحة، واصطف ذلك المزيج المتداخل أمام أحد المقاهي في تلك المدينة الأوروبية الباردة. ارتفعت فوق الجلسة تاندة مخططة طوليًا بخطوط عريضة من اللونين الأحمر والأبيض، وانتشرت أوراق الشجر الجافة تحت الأقدام، تصدر خشخشة خافتة متكسرة. على الرصيف الضيق الفاصل بين نهري الطريق استقر عمود فضي علته لافتة زرقاء دائرية الشكل، توسطها سهم أبيض انقسمت رأسه إلى سهمين متضادين في الاتجاه، يشير أحدهما إلى اليسار والآخر إلى اليمين.

جلست على أريكة منخفضة من البامبو وهي تتكئ على وسادة صغيرة وتتأمل خطوط التاندة واللافتة التي بدت محيرة بلا معنى، تشتت بدلاً من أن توجّه. تقاطعت الخطوط وتشوشت في عقلها وامتزجت مع خشخشة الأوراق الجافة وهمهمات البشر على الموائد المجاورة. أغمضت عينيها وهي تحتسي القهوة التي بدت ذات مرارة لاذعة. وضعت الفنجان على المائدة وأضافت له كيسًا من السكر، رغم أنها أقلعت عن تناول القهوة والشاي بالسكر منذ سنوات. رفعت الفنجان لشفتيها مرة أخرى وهي تراقب ذلك الرجل الذي أتى ليستقر على المقعد الخشبي المواجه لها من جهة اليسار.

كان مظهره يوحي بأنه من المشردين الذين بلا مأوى. يرتدي بنطلونًا بنيًا وقميصًا رماديًا، تماهى اللون الحائل لهما مع شعره المشعث الذي اختلط الشيب فيه ما بين الرمادي والأبيض وشعرات قليلة سوداء تقاوم زحف الزمن. اختفى النصف السفلي من ملامحه تحت شارب أشيب كث ولحية مشعثة، لكن رغم ذلك بدا من الواضح أنه يحدّث نفسه بانفعال. حركة شفتيه بدت واضحة، يزيد من تأكيدها حركات اليدين وتعبيرات الوجه. تارة يسند ذراعه على حافة المائدة الصغيرة، بينما يده الثانية تستند على جبهته وكأنه غارق في تفكير عميق، وتارة أخرى تفترش كفه سطح المائدة وأصابعه مفرودة عن آخرها، بينما يحملق في لا شيء، ثم يغمض عينيه بالتناوب. وطوال الوقت كانت شفتاه تتحركان بهمهمات غامضة، وتتفاوت الانفعالات والتعبيرات على ملامحه التي بدت غريبة عن المكان. ملامح سمراء يمكن أن تضل وتجد طريقها بسهولة وسط الجموع التي تجلس على أي مقهى بلدي في وطنها. لفت نظرها وجود فانوس صغير شرقي الطابع، له نوافذ زجاجية ملونة على المائدة أمامه، وكان من الغريب أنه كان الوحيد بالمكان. لم تكن هناك فوانيس أخرى على بقية الموائد.

انتهت من احتساء القهوة، وقبل أن تضع الفنجان التقت عيناهما للحظة خاطفة. حرك الفانوس أمامه قليلاً قبل أن يرفعه في حركة مسرحية، وكأنه كأس تُرفع لإلقاء نخب ما. اتسعت ابتسامة كشفت عن سنٍ أمامي مفقود قبل أن تهتز اللحية المشعثة، بفعل ما بدا أنه ضحكة صامتة غامضة. دفع المقعد للخلف قبل أن ينهض ويوليها ظهره ويمضي لحال سبيله. انهمرت فجأة زخات من

المطر قذفت بها غيوم في برودة الرصاص الصلب، سهام تنغرس في الأسطح ثم تتكسر وتسيل دون أن تغسل الإرهاق من على الوجوه. لمحت مجموعة من المطبوعات القديمة تكوّمت في أحد الجوانب خارج حدود التاندة، وقد بللتها الأمطار ونزفت حروفها سواد الحبر دون أن يقرأها أحد. تأملت الخطوط البنية التي ارتسمت على جوانب وقاع الفنجان الفارغ، ثم تأملت اللافتة الزرقاء ذات السهم المزدوج كالأفعى مشقوقة اللسان. نهضت هي الأخرى وقد اختارت أن تسلك الطريق الأوسط الذي لم تشر إليه الأسهم.

فاصل

تلك الحالة التي يفقد فيها الكاتب قدرته على الكتابة والرغبة فيها. يغدو الوجود لديها بلا معنى. ويكون ضعيفًا، أضعف ما يكون. ويصير انزواؤه فيما يشبه الصندوق المحكم نوعًا من الكُمُون الواقي. يتحاشى مواجهة العالم بمثل هذه الدرجة المبرحة من الضعف، ويأمل أن تعود روحه إلى انتفاضها في مثل هذه السكينة والهدوء.

محمد المخزنجي
البستان

الثانية
رباط البياض

تطالع الأوراق البيضاء المتناثرة فوق سطح المكتب بقضبان سطورها، التي فشلت في القبض على أي أفكار واحتوائها. تقبض على إحداها وتكورها بعصبية قبل أن تلقي بها فارغة في السلة التي فاضت جوانبها. تتحرك قليلاً لتستدير في جلستها على الكرسي ذي العجلات حتى تواجه الشاشة مرة أخرى. زجاج أصم هو الحد الفاصل بين عالم البياض والصمت من جهة، وعالم الألوان والصخب من جانب آخر.. الحد الفاصل بين برزخ العدم الرابض في انتظار التخلق من لا شيء، كعنقاء تصعد من قلب الرماد، وضجيج وصراع حروف وكلمات تتعقد وتلتف حول بعضها بعض، كآلاف الحيات في انتظار الحاوي الماهر الذي ينظمها في رقصة متناغمة بعزف أفكاره وأصابعه. زفرت بحنق وهي ترمق البياض المترامي ملء البصر، مخرجًا لها لسانه وقد استحال ثقبًا أسود يلتهم كل شيء. في سعيها إلى تحرير المعاني وجدت نفسها وقد سقطت داخل تلك المسافة بين الكاتب وشخوصه. بين طرفي المعادلة من السجين ومن السجان، ومن يملك الأجنحة ومن يقبع وراء القضبان؟ لكم يرهقها ويستثير حفيظتها جبروت المسافات! بالمقاييس العادية لا تتعدى المسافة بين أطراف أناملها وأزرار لوحة المفاتيح بضعة سنتيمترات، لكن بمقاييس محيط الوحي بمده وجزره تقاس المسافة بنزق ربات الإلهام ودلالهن! حركت قدمها ببضع هزات عصبية ثم نهضت واقفة بحركة فجائية، مادة ذراعيها على اتساعهما كصليب بشري جريح أعلن كفره بالربات وبالوحي. أغمضت عينيها وألقت رأسها للوراء وفمها مفتوح.. بدلاً من إطلاق صرخة، أخذت نفسًا عميقًا،

ثـم أطلقـت زفـرة حـارة قبـل أن تلقـي بجسـدها فـوق المقعـد مـرة أخـرى وتنقـر أصابعهـا بعصبيـة عـلى لوحـة المفاتيـح.

- هي صحيفتي سأملؤها بما شئت!

***

تـدور حـول نفسـها وتتحـرك جيئـة وذهابًـا كأسـد جريـح، داخـل قفـص لا يبعـد عينـه عـن القضبـان حتـى في لحظـات راحتـه، لكـن عينهـا لا تلمـح قضبانًـا ولا تـرى سـوى ذلـك البيـاض الشاسـع الـذي يحاصرهـا. تحـاول الهـروب لكنهـا تجـد نفسـها رغـمًا عنهـا كلاعـب البانتومايـم الحبيـس داخـل صنـدوق وهمـي، يتحسسـه بيديـه ولا يلمسـه، لكـن رغـم ذلـك لا يسـتطيع فـكاكًا. لا تـدري مـن هـي ولا أيـن هـي، ولا متـى وكيـف جـاءت هنـا ومـن أتى بهـا، كـما لا تـدري مصـدر تلـك الأفـكار والمشـاعر التـي تحـاول فـرض نفسـها عليهـا رغـمًا عنهـا. كل مـا تعرفـه عـن يقـين هـو أنهـا سـتقاوم حتـى النهايـة. حتـى لـو لم تمـلأ البيـاض بمـا تريـد فلـن تسـمح أبـدًا بـأن يمـلأ السـواد عقلهـا وروحهـا رغـمًا عنهـا. سـتتجرع صمـت البيـاض حتـى الثمالـة لتكتـب نهايـة تلـك القصـة التـي تحـاول فـرض أحداثهـا قـسرًا، حتـى لـو كان في ذلـك نهايتهـا هـي الأخـرى. تغمـض عينيهـا برهـة.. يغـزو البيـاض الباهـر ببرودتـه خصوصيـة اللحظـة الحميميـة في انفرادهـا بنفسـها خلـف جفـون مغلقـة، فـترى درجـات مـن الرمـادي بـدلاً مـن الاختـلاء

في ركـن مظلـم هـادئ. تبقـى المسـافة بـين الجفـون المغلقـة وحلـم الخصوصيـة، هـي ذات المسـافة بـين البيـاض الشـاهق الـذي يحاصرهـا، ورغبتهـا الجامحـة المشرعـة عـلى احتـمالات لا متناهيـة لتركيـب شـذرات ملونـة وتجميعهـا نوافـذ مـن زجـاج معشّـق، تـرى منهـا العـالم كـما تريـد بألـوان قـوس قـزح، تنزلـق مـن طرفـه للطـرف الآخـر وتتحـرر مـن أسرهـا الصامـت. مغمضـة العينـين مـا زالـت، تفـرد ذراعيهـا عـلى اتسـاعهما كصليـب بـشري جريـح أعلـن كفـره بإلـه مجهـول يحـاول خلقـه قـسرًا. ألقـت رأسـها للـوراء وفمهـا مفتـوح.. بـدلاً مـن إطـلاق صرخـة، أخـذت نفسًـا عميقًـا، ثـم أطلقـت صيحـة حـارة تـردد صداهـا وسـط صمـت البيـاض:

-هي صحيفتي سأملؤها بما شئت!

-٤-

هـل يوجـد غـير الموسـيقى مـن يعطينـا شـهوة الحلـم والذهـاب بعيـدًا في حنيننـا؟ نتحمـل قسـوة الحيـاة وصرامتهـا، لأن الموسـيقى مـن حـين إلى آخـر تفاجئنـا بعنفوانهـا ودهشـتها، وتشـعرنا بطفولتنـا الدائمـة، وإلا مـن يمـلأ هـذا الخـواء المفجـع الـذي يـزداد اتسـاعًا فينـا كل يـوم؟!

واسيني الأعرج
طوق الياسمين

الأوله
رسائل بيت الرمان

الرسالة الأولى
٢١ مارس ٢٠٠١

اليـوم أول أيـام الربيـع. شـجرة الرمـان أسـفل نافـذتي بهـا بدايـات عـش لم يكتمـل بعـد لـزوج مـن العصافـير. تسـليني زقزقتهـما الصباحيـة وأتطلـع لزياراتهـما المفاجئـة. يقفـان عـلى حافـة النافذة، يعـوج أحدهما رأسـه ويطلـق زقزقـة فضوليـة صغـيرة متجـولاً بنظـره داخـل غرفتـي، كـما أراقـب أنـا تكاثـر الأغصـان الصغـيرة وأعـواد القـش في مـشروع العـش المشـترك. يتقافـز الآخـر عـلى سـاقيه القصيرتـين بنفـاد صـبر، ويزقـزق زقزقـة قصـيرة مقتضبـة قبـل أن يطـير مبتعـدًا، ولا يلبـث الآخـر أن يلحـق بـه بعـد أن يعتـذر برقصـة صغـيرة مـن القفـزات المتتاليـة، وأغنيـة قصـيرة مرحـة، شـاكرًا لي حسـن الضيافـة المتمثلـة في فتـات الخبـز المنثـورة عـلى حافـة النافـذة. يعـودان إلى جمـع القـش بينـما أسـطر أنـا هـذه الكلـمات في ثنايـا عقـلي وعينـي عـلى شـجرة الرمـان أسـفل نافذتـك، وأنـا أتسـاءل لمـا أخـط لـك رسـائل عقليـة أدرك تمـام الإدراك أننـي لـن أرسـلها أبـدًا؟!

الرسالة الثانية
٢١ يونيو ٢٠٠١

شيء ما في الجو.. شيء غريب حار خانق عالق دون ملامح محددة، ككابوس يحتبس فيه صوتك، تعجز عن الصراخ ولا تتبين هوية صاحب الأصابع الضاغطة على عنقك، ثم لا تلبث أن تستفيق فتتبخر التفاصيل ولا يبقى غير شعور مبهم بالاختناق. نافذتك مغلقة اليوم. زهر الرمان يبدو ذابلاً والعش لم يكتمل. زهر الرمان.. أرادت أمي تسميتي جلنار. اختارت هذا البيت تحديدًا لأنها فتنت بشجر الرمان وقد أزهر في الحديقة الصغيرة حول المنزل. أفتقد رفيقي النافذة بزقزقتهما الصباحية وأفتقد نافذتك المشرعة. ما زلت أنثر فتات الخبز بحكم العادة.. بل بحكم الحنين.. وما زلت أرنو للشيش البني المترب وقد زمّ ضلفتيه في إحكام من يحافظ على سر مبهم.

الرسالة الثالثة
٢٣ سبتمبر ٢٠٠١

لم تثمر أشجار الرمان هذا الخريف. بيت الرمان افتقد ثماره كما افتقد ساكنيه.

بتذكرك كل ما تيجي لتغيم
وجهك بيذكر بالخريف
بترجعلي كل ما الدني بدها تعتم
مثل الهوا اللي مبلش ع الخفيف

سمعت غرابًا ينعق هذا الصباح. انقبض قلبي وأزلت الخبز من حافة النافذة. الشيش المغلق تراكمت عليه الأتربة وما زالت أسراره خبيئة لا أعثر على مفتاح يبوح بما خلفها. بيرسيفوني أكلت بعض حبات الرمان واختفت في العالم السفلي حتى أجدبت الأرض لحزن ديمتر على ابنتها الغائبة.. فتراك أين اختفيت أنت؟ وأين راح الجلنار والرمان؟ ولمَ بهت ألق الحلم وأقفر كل شيء؟ لم يعد لنا هنا شيء ولم يعد لنا أحد. أودع طيفك وأستودع الرمان رحم مستقبل لم يولد بعد. تنساب نغمات فيروزية ناعمة وأنا أطل من هنا للمرة الأخيرة قبل أن يطوي هذا الشيش ضلفتيه يحتضن ذكرياته هو

الآخـر.

خبرني إن.. بعدك بتحن
ما بعرف ليش عم بحكي ولا كيف
يمكن لا لا.. صاروا بعاد
وهو حكياتي.. هو حكي ولاد
لكن كله ما عم يمنع أشتقلك
ما دام كل سنة في خريف

الرسالة الرابعة
٢٣ ديسمبر ٢٠١١

عشر سنوات.. عقد كامل مر منذ آخر مرة لمحتك فيها تنثرين فتات الخبز على حافة نافذتك. لمحت في عينيك رسائل اخترت ألا أقرؤها. هناك رسائل لا يجب أن تُفتح، وهناك رحلات لا بد أن يقطعها المرء وحيدًا.. كما أن هناك بدايات مبتسرة ينتهي بها المطاف في مقبرة الأحلام المجهضة قبل أن تنمو لها أجنحة تطير بها نحو النهايات. طريق طويل مشيته في زمن ولد خلاله جيل جديد، ووصلت خلاله إلى الفراغ والعدم. عدت إلى نقطة البداية مع بشائر البدايات الجديدة، علّني أصل هذه المرة. نوافذ البيت متربة منغلقة على ماضيها وذكرياتها. شجر الرمان أيادٍ خشبية جافة معروقة ممتدة من الأرض المشققة إلى سماء رصاصية مكفهرة طالبة رحمة تتنزل عليها. كسرت فرعًا علني أتخذه عكازًا أتوكأ عليه حتى أعبر الأيام القادمة بمساندة الحنين والذكرى.

التانيه
أبواب

امتلأ الشارع المترب بالبروز والحفر، وعلى جانبيه علت العمارات القديمة ذات الأبواب العالية والشرفات الخشبية والأسقف المرتفعة. تخطو واحد، اثنان، ثلاث خطوات، حتى تصل إلى تلك العمارة على يمينها بمدخلها المرتفع ذي الباب الأزرق المميز. تشقق الخشب القديم وتساقط الطلاء الحائل اللون كاشفًا الزمن الرمادي المترّب الذي تسلل واختبأ بين طبقاته وبين عروق الخشب. الشراعتان الحديديتان في المصراعين بزخارفهما الملتوية كأيام مضت وانطوت على نفسها، ينكشف خلفهما السلم الرخامي الذي تموجت درجاته تحت وطأة خطوات الشهور والسنين. تتحسس وجه الباب العجوز بحنان، وتحتضن أناملها حديد الشراعة الدافئ، فتصافحها الأتربة الناعمة والصدأ بلونه البني الأليف المائل للحمرة.

تغلق عينيها لترى. خلف هذا الباب ووراء هذه الزرقة يسكن عالم باتساع البحر ورحابة الأفق. القفل الحديدي الصدئ في السلسلة الضخمة المثبتة بالمصراعين له في كفها ثقل ووطأة الزمن، لكنه ينفتح وراء الجفون المغلقة ويفتح معه بوابات الطفولة وبهجة ذكريات مضت. أكف متشابكة وضحكات تعلو ودبيب أقدام تطارد كرة شاردة. جلسات تحت أشعة الشمس التي تذيب الآيس كريم في اليد وتطلق الضحكات من الفم الذي تلون بالفراولة والشيكولاتة، بينما يحتضنهما الخشب الأزرق الدافئ للمصراعين كجد حنون.

فتحت عينيها مرة أخرى وتنهدت. فكرت أن الأبواب كالأشخاص وسرحت في محاولة لفهم أبوابه المتعددة، علّه يسمح لها بالدخول لو نجحت في العثور على المفتاح الصحيح. أحيانًا يبدو كباب زجاجي شفاف واضح دون تعقيد أو تكلف، لكنه رغم ذلك لا يفصح عن مكنونه، إذ تنعكس على صفحته الصور والمرئيات فتخفي ما خلفها. لا تجد مفرًا من الاقتراب، تلصق وجهها بالقرب من السطح الخادع كالماء الهادئ ظاهريًا رغم خطورة أعماقه. عبثًا تحيط وجهها بكفيها في محاولة لحجب الضوء، وكل ما يعمي ويشتت في محاولة لاستقراء ما بالداخل.

أحيانًا أخرى يبدو مثل باب من تلك الأبواب الدوّارة التي تدلف من جانب منها لتدور معها، وتعتقد لوهلة أنها قد نفذت للداخل قبل أن تجد نفسها لفت في دورة مفرغة وألقيت خارجًا مرة أخرى! وكم من مرة ظهر بوجه تعلوه بسمة مرحبة، لكن ما أن تدنو حتى تجده كباب من أبواب الحديد المزخرف، فاتن بمظهره وتعتقد أنك ترى ما يقبع خلف زخارفه المتداخلة، لكن عندما تمد يدك لتدفعه وتدخل، تفاجأ ببرودة الحديد وصلابته التي لا تلين.

استندت بجسدها متكئة بكامل ثقلها على الوجه الخشبي الأزرق الدافئ. تسربت لها حرارة الشمس المختزنة به، تحتضنها كما احتضنت الزرقة طفولتهما معًا. علت نغمة الهاتف المحمول من حقيبتها. لم ترد على الفور، بل تركتها تنساب بحرية لبعض الوقت.

يمكن لو فيه بينى وبينك حكى، كنا حكينا
يمكن لو فى بينى وبينك دمع، كنا بكينا
لو كان فيه طريق تودى، شوية شوية كنا مشينا
لو كان فيه درب يوصل بينى وبينك كنا لقينا

- ألو.. أيوه أنا عند البيت القديم ... لا، الباب مقفول ... هتجيب معاك المفتاح؟ أستناك يعني؟ ... مش عارفة القفل مصدي ... هههههه لا زقه متخافش مش هتقع ولا حاجة ... بقولك متخافش على ضمانتي ... متخافش مش هيفتح! ... يمكن لو فيه بينك وبينك باب كنا ... هههههه لا ولا حاجة متاخدش في بالك، إنت عارفني من صغري مجنونة ... هستناك. سلام.

تجلس على العتبة العتيقة، تدندن، ثم تخط في التراب بأناملها أشكالاً لتعود لتمحوها وترسمها مرة أخرى.

التالته

مختار المشاعر

كجملة اعتراضية بين قوسين كانت. لم تكن متداخلة بما فيه الكفاية مع باقي الجملة لتخرج من بين القوسين اللذين احتويا وجودها وقت أن كانت موجودة، لكنها كذلك كانت جزءًا أساسيًا من الجملة، لا يستقيم من دونه المعنى. والآن وقد رحلت وبات غيابها حاضرًا في صخب، تشوّشت معاني باقي الكلمات التي اجتمعت في محاولة لاستعادة الدلالات المفقودة. في ذات المكان الذي كانوا يعقدون فيه اجتماعهم الشهري المعتاد جلسوا جميعًا، عدا مقعد واحد ظل شاغرًا. عادة ما كانت هي التي تنظم اللقاء، تجري الاتصالات وتحاول التوفيق بين المواعيد والظروف المختلفة لكل فرد من المجموعة، لكن حضورها هي شخصيًا لم يكن منتظمًا، وبالرغم من ذلك كان للفراغ الذي احتل المقعد الشاغر نكهة مختلفة هذه المرة، وكأنه يعلم عن يقين أنه حضر ليبقى.

جلست المجموعة على نفس المائدة المعتادة، وتداخلت أصوات الأحاديث الجانبية مع خبطات ملعقة تقلب قهوة داكنة خلت من أي أثر لحلاوة السكر في فنجان ضخم، قبل أن يعلو صرير احتكاك كرسي بالأرض وهو يتراجع للخلف، مصحوبًا بصوت نحنحة مترددة لم تكن لفتح ما انغلق من الحلق، بقدر ما كانت للفت انتباه باقي الجالسين. خفتت الهمهمات والأحاديث الجانبية لتتركز الأنظار على تلك التي وقفت مترددة تحاول انتقاء كلماتها بحرص، جاهدة ألا تجعلها تبدو كنعي.

- لما يبقى حد واحشك أوي وتيجي حاجة تفكرك بيه ومتبقاش عارف تبتسم للذكرى وعينيك بتدمع في نفس الوقت، عشان مش هتشوفه تاني.. فيه أحاسيس ملهاش كلمة محددة تعبر عنها.

قطعت حديثها وقد شعرت أنها محملة بثقل حزن أكبر مما كانت تنتويه، وأكبر مما كانت لترضى عنه تلك المعنية بالكلمات. أطلقت زفيرًا ثم رسمت على شفتيها نصف ابتسامة قبل أن تواصل الحديث.

- ممكن نلعب لعبة بالكلمات.. زي الصور اللي كانت بتعجبها على موقع تمبلر. كلمات جديدة وغريبة لوصف مشاعر أو معاني عميقة ومعقدة. نوصف الشعور ونحاول نلاقيله كلمة.. معجم خاص كانت هتحبه هي.

ارتفع صوت من أحد الجلوس.

- المعجم الوسيط ولا مختار الصحاح؟!
- لا، مختار المشاعر!

جلست وقد بدت على الباقين علامات التفكير، ثم علا صوت أحدهم.

- إحساسك لما اللون -أي لون- يصبح امتداد لروحك.. وكأن

مشاعرك اللي جواك فاضت لبرة ومساحات اللون قدام عينيك امتزجت بيها وسرسبت نفسها جواك شوية شوية. زرقة البحر مثلاً لما تقف وهو مفروش قدامك على مدد الشوف، والموج بيهدهدك ويطبطب عليك، يوشوشك لحد ما تحس نفسك دايب فيه وسارح معاه لحد الأفق وتتوه ما بين الميه والسما.

- بلاش نختار كلمة لوصف المشاعر، دي كانت هتبقى مهمتها هي. كفاية إحنا نوصف الإحساس.

أومأت بعض الرؤوس بالموافقة بينما همهمت بعض الأصوات «هممممم»، موافقة ممزوجة بتفكير.

- إحساسك لما تسمع عصفور بيغني في البلكونة وجمال الغنوة يلمس قلبك، وتقرر تحط شوية ميه وشوية رز عشان يمكن الحظ يسعدك وتشوفه.. يزورك وياكل ويشرب، ولما يخلص يشكرك بغنوة مخصوص.

ارتسمت بعض الابتسامات على الشفاه قبل أن يواصل الصوت بنبرة شجن:

- ومع الوقت تلاقي الميه اتبخرت والرز منقصش حباية، لكن زاد عليه طابور نمل طويل. وبدل نوتة مزيكا متلاقيش غير نقط أبيض في اسود على حرف السور سابهالك العصفور رسالة. إحساسك وإنت بتاخد درس من عصفور صغير بيعلمك إن الكرم الحقيقي

ميبقاش لطمع في ثواب ولا في تمن.. مش عشان حسنات عند ربك ولا غنوة تبسطك يدفعهالك الضيف من نغمات صوته.

ارتفع صوت من الأصوات محتجًا على نبرة الحزن المتزايدة.

- إحساسك لما تاكل حاجة حلوة ويبقى نفسك بعدها في حاجة حادقة، وتاكلها وترجع عايز حاجة حلوة تاني!

سرت ضحكات خافتة بين الجلوس على المائدة، بينما امتدت يد تلتقط حبة من حبات الزيتون المخلل، ويد شخص آخر تدفع بقطعة من جاتوه الشيكولاتة تجاه الفم المفتوح، استعدادًا لالتهام الزيتون.

- غمس الآيس كريم بالعيش!

انتهت المقطوعة الموسيقية التي كانت تعزف بهدوء في الخلفية، وعلت بدلاً منها نغمات السيمفونية رقم ٤٠ لموزارت.
تمتم أحدهم:

- الموسيقى هي الصمت اللي بين النغمات.

بينما ارتفعت الدندنة من أكثر من فم، وتعالت بعض كلمات أغنية فيروز التي لها نفس اللحن:

- يـا أنـا يـا أنـا هـرب الصيـف، هربـت عناقيـد الزينـة، وإذا ضيعنـي الهـوى شي صيـف بقلبـك بتلاقينـي.
- تركــوا أســاميهن ع البــاب عــلى كتــب الدمــع وراحــوا. نســيونا وارتاحــوا، نســيونا وارتاحــوا.

ســاد الصمــت بعدهــا لحظــات أخــرى، حتــى عــاد ذلــك الــذي تمتــم بالعبــارة الأولى، ليقــول بصــوت أعــلى وأكــثر وضوحًــا:

- المشاعر هي الصمت بين الكلمات.

-٥-

طالما سألت نفسي هل الذكرى السعيدة شيء مفرح أم محزن، مفرحة لأنها تذكرك بمتعة أم محزنة، لأنك لن تستطيع أن تعيشها الآن لاختلاف كل شيء؛ لم يعد هناك نفس البشر، لم يعد هناك نفس الظروف، لم تعد أنت نفسك، أنت»

عمرو سلامة
رسائل ترد للمرسل

الأوله
عصير برتقال

تعالت الضحكات المكتومة والهمسات من وراء الشيش الخشبي العتيق. امتدت قدم صغيرة فاصطدمت بالسبَت الخوص الذي سقط على جانبه. ركلت القدم الحبل المربوط في السبت فتراقص كثعبان يستجيب لموسيقى سيده. تحرك الشيش وبانت حركته من زجاج باب الشرفة التي كانت أرضيتها ذات ألواح خشبية مشققة رمادية اللون، تظهر من بين مسافاتها المتباعدة بعض الشيء بلاطات الرصيف وأسفلت الشارع. ارتفعت أصوات تحذير تشوبها المزيد من الضحكات المكتومة.

- هششششششش.

من الداخل ارتفع صوت آخر يصيح مناديًا، وأقدام صغيرة تجري من غرفة إلى أخرى. ابتعد وقع الأقدام وصدى النداء، فانسابت الضحكات وصرخات المرح قبل أن يقاطعها صراخ غاضب من الشرفة المجاورة.

- يا حمارين، يا نيلين، يا زفتين، يا تورين!

الصغيرة التي كانت تبحث عن الجمع المختبئ افترضت التزامهم بقواعد الكبار وقواعد شرف اللعبة. توقعت أن يمتنعوا عن الاختباء في مكان منع الكبار دخولهم إليه لخطورته النسبية، فلم تبحث

هنـاك. عندمـا انقطـع رجاؤهـا في العثـور عليهـم داخـل الحجـرات المتعـددة في شـقة الجـدة ذات السـقف العـالي، خرجـت مـن البـاب الرئيـسي للشـقة، ودخلـت بـاب الشـقة المجـاورة، حيـث كانـت الأبـواب دومًـا مفتوحـة عـلى مصراعيهـا، تصـل يومهـم مـع يـوم الجـيران حتـى تحـين سـاعات النـوم. ركضـت بـين الغـرف تصيـح مناديـة دون أن تتوقـف للـرد عـلى مداعبـات العجـوز الطيبـة صاحبـة الشـقة. دخلـت الشرفـة التـي احتضنـت كرتونـة متوسـطة الحجـم بهـا صغـار البـط، بلونهـم الأصفـر اللطيـف، ورأسـهم الـذي يتوّجـه السـواد. كادت تنـسى بحثهـا وتنشـغل باللعـب مـع البـط، لـولا أن بلغـت الصرخـات المرحـة مسـامعها مـن الشرفـة المجـاورة، حيـث رأت العصابـة الصغـيرة خلـف الشـيش تختبـئ بالـكاد، فصرخـت بدورهـا لانكشـاف الخديعـة.

زادت الضحـكات وارتفـع الهـرج قبـل أن يعلـو تحذيـر آخـر، «هششـش!»، ويتسـللوا الواحـد تلـو الآخـر مـن بـاب غرفـة الضيـوف الـذي كان يـؤدي إلى السـلم، بـدلاً مـن بابهـا المفـضي إلى طرقـة الشـقة، والـذي دخلـوا منـه أولاً. كان دخـول الغرفـة ممنوعًـا للحفـاظ عليهـا من صخـب لعبهـم، ولكـن الجـرم الأكـبر كان دخـول شرفـة تلـك الغرفـة، التـي كانـت تهتـز ألـواح أرضيتهـا تحـت أقدامهـم كلـما تقافـزوا فوقهـا. ارتفـع نـداء بائـع مـن الشـارع في الأسـفل ينـادي عـلى بضاعتـه مـن البرتقـال واليوسـفي.

فطنـوا إلى أنـه يتوجـب عليهـم مصالحـة الصغـيرة تفاديًـا للعقـاب في حـال وشـايتها بهـم، فتركـوا لهـا النقـود التـي أخذوهـا كي تتـولى هـي الـشراء. لم تلبـث أن تعالـت أصـداء ركضهـم نـزولاً عـلى السـلالم

الرخامية، التي تموّج وجهها، في طريقهم لمطاردة عربة البرتقال التي أخذت تبتعد.

***

الزحام المروري الخانق نسجت عوادمه شبكة رمادية قاتمة جثمت على الصدور، منافسة الصهد المنصبّ فوق الرؤوس في تلك الساعة من الظهيرة. نهق حمار بصوت لم تتضح درجة ارتفاعه من بين كل الضجيج المحيط، فحانت منها التفاتة للعربة الكارو المحمّلة بالبرتقال، شموس صغيرة تراصت بعضها فوق بعض بشكل هرمي مبهج. نادى البائع على بضاعته نداءً طويلاً منغمًا، أعاد ذكريات الطفولة، حيث السبت المصنوع من الخوص المجدول يتدلى من حبله الطويل، ليصل إلى البائع صاحب النداء، يتناول منه النقود قبل أن يملأه ببضاعته التي يتغنى بمحاسنها، ويعاود السبت الارتفاع للشرفة مرة أخرى.

زحف المرور بضعة سنتيمترات قبل أن يتوقف مجددًا، وتتوقف هي أمام الشارع الجانبي القديم بكل ذكرياته. لم يبق من البيت القديم سوى الدور الأرضي بدكاكينه العتيقة. فوهات مغارات معتمة رطبة تحدق في وهج وصخب النهار الخارجي، بدهشةِ مَن استيقظ من سبات أعوام، ليفاجأ بزمان غير الزمان. البوابة الحديدية الضخمة مغلقة بسلسلة غليظة علاها الصدأ، بينما الساحة المربعة الممتدة والتي كانت تفضي إلى باب العمارة الداخلي قد تكومت بداخلها أشياء مجهولة العمر والهوية. لم تعد هناك ألواح خشبية رمادية اللون تتخللها الشقوق، تطالع من بينها الضوء وهي تقف على الرصيف بالأسفل.

علا نداء بائع البرتقال مرة أخرى. نزلت من السيارة تاركة إياها وسط الطريق المختنق بالسيارات، وتوجهت نحو الهرم البرتقالي اللون. كان الطين يعلو الحبات المستديرة من بعض جوانبها، على النقيض من تلك الحبات الأكبر حجمًا التي تتكوم في السوبر ماركت، والتي تلتمع قشرتها بطبقة شمعية لزجة. يسمونه «برتقال عصير».. لونه باهت يفتقد زهوة البرتقالي المتوهج رغم لمعته الصناعية، ونكهته المحايدة بميوعة هويتها تفتقد تلك النكهة اللاذعة المحببة للبرتقال البلدي أو حلاوة البرتقال السكري. «باتت أيامنا كلها بلون ونكهة برتقال العصير»، قالت لنفسها بصوت منخفض، قبل أن توجه كلماتها للبائع:

- خمسة كيلو بلدي وخمسة كيلو سكري من فضلك.

التانيه
حنين

السماء قبة حمراء منصهرة فوق الرؤوس، وأحجار الطريق الرمادية الضخمة مشتعلة تحت الأقدام، وبينهما بشر تعساء ينضجون على مهل في عصارة العرق المالح اللزج. هربت من الجو الحارق ودلفت إلى الدكان الذي بدا كمغارة معتمة رطبة. أغمضت عينيها لبرهة قبل أن تألف العتمة الداخلية بعد وهج الخارج، وتتبين أن المكان تكدست في أركانه وعلى أرفف جدرانه وتدلت من سقفه أشياء لا حصر لها، ولا شيء يجمع بينها سوى تراكم الزمن والأتربة.

صور متآكلة الأطراف في براويز متربة مشروخة الزجاج.. أشكال وألوان من أغراض معدنية ملطخة في مختلف مراحل الانطفاء بين نصف الألق والعتمة التامة.. أجهزة عتيقة من أزمنة مضت، ما بين راديو وتليفون وكاميرا فقدت حواسها بتراكم الأيام والشهور. كان الجو سميكًا بعبق الزمن ورائحة الذكرى، وكأنها انتقلت إلى عالم آخر، يقبع على بوابته ذلك الحارس الأشيب المتربع على الكرسي الخشبي، وقد حفرت وجهه تجاعيد انقسمت إلى نصف داكن اختفى وسط العتمة، بينما النصف الآخر يلفحه وهج الأشعة في الخارج. بدا أسطوريًا في جلسته على الحد الفاصل بين عالمين، تسبح من حوله ذرات مجهولة صغيرة تعلقت في الأشعة التي اخترقت صدر العتمة.

لم تستطع أن تنظر إلى كنوز المغارة على أنها مجرد أشياء، فللأشياء أيضًا حياة وذاكرة تسكنها. هناك أشياء تمر بنا ويتقاطع طريقنا

معها، تحل علينا كضيف ثم لا تلبث أن تنسحب بخجل شمس المغيب، أو تنزلق كغيمة هاربة. وهناك أشياء تسكننا ونسكنها حد التماهي والتلاشي، تحل فيها ذكرياتنا ولحظاتنا الحميمة.. ننفخ فيها من روحنا وتصير هي موشومة على جدار القلب وفي متاهات الذاكرة. لكن هشاشة الذكرى التي قد تبقيها متقدة مشتعلة هي ذاتها التي قد تحكم عليها بالانطفاء، قبل أن تتحول إلى رماد تذروه الأيام. بعض الأشياء لو ضاعت يموت جزء منا ويتلاشى معها، فهناك خسارات وانكسارات لا تجبرها مكاسب أو نجاحات تالية. وبعض الأشياء نتخلص منها بملء الحواس ومع سبق الإصرار والرغبة، ليس فقط للحفاظ على نقاء وهشاشة الذكرى، لكن من أجل الحفاظ على الذات نفسها.

تأملت الذكريات المكدسة المتربة وهي تجلوها ببصيرتها وتحاول رؤية الروح التي سكنت كل منها ذات يوم. مدت يدها تلتقط من فوق أحد الأرفف علبة نحاسية دقيقة التفاصيل والزخارف، تختبئ خلف غطائها المترب الذي تم تفريغ نقوشه بمهارة مرآة قديمة، لونها حائل وزجاجها مشروخ في أكثر من مكان، بحيث باتت الصورة المنعكسة فيها مقسمة إلى شذرات، لا بفعل النقوش التي تقطع سطحها فحسب، بل أيضًا بفعل شروخ الزمن. رفعت الغطاء برفق، وفي عمق الفراغ طالعها مخزون وافر من الفرح والخيبات رأتها بعين القلب. توجهت نحو حارس المغارة وهي تمد يدها بالعلبة في استفسار. أخبرها بالثمن المطلوب. تمتمت وهي تمد يدها الأخرى بالمبلغ:

- هي أشياء لا تشترى.

خرجـت للوهـج والصهـد مـرة أخـرى وقـد اغتسـلت روحهـا بنـداوة زمـن آخـر.

التالته
النوتة

غلاف جلدي أخضر اللون، مبطن بطبقة إسفنجية تعطي ملمسًا له ليونة وطراوة عندما تحتضنه الأنامل. تشققت الطبقة الجلدية من الجوانب وانكشف ما تحتها من إسفنج وورق مقوى، انفصل الغلاف عما يحتضنه من أوراق، وتساقط بعضها منفصلاً عن القلب الورقي الأصفر المتهالك. ورغم ذلك كانت تحتفظ بالنوتة الصغيرة، وترفض استبدالها بتلك الجديدة التي اشترتها وأودعتها درجًا من أدراج المكتب حتى علاها التراب، دون أن تقوم بنقل ما بالقديمة من أسماء وأرقام إلى تلك الجديدة ذات الغلاف البني القاسي اللامع.

امتدت أناملها تتصفح الوريقات الصفراء التي بهت ما عليها من أرقام. كان من عادتها أن تسجل الأسماء بالقلم الجاف الأزرق وأمامها الأرقام بالقلم الرصاص. قد تتغير الأرقام فتمحوها وتدوّن بدلاً منها الرقم الجديد، لكنها أبدًا لا تمحو الأسماء حتى ولو انقطعت صلتها بصاحب الرقم. احتضنت نظرة العين بعض من أزهروا في القلب رغم انقطاع الصلة بفعل المسافات والزمن. أسماء أخرى لا تذكر أصحابها إلا لمامًا.. وأرقام محيت فلم يبق منها إلا آثار الرصاص الرمادي التائه المعالم، وقد بهتت كما بهت أصحابها من القلب والذاكرة، ولم يظل سوى الاسم يذكّر ببعض دروس الحياة.

سقطت ورقة من بين يديها. التقطتها بيد، وبالأخرى فتحت النوتة ذات الغلاف البني القاسي بعد أن مسحت عنها التراب الذي

اعتلاها. صفحة جديدة ومن أول حرف الألف تبدأ.. يتردد القلم فيقف في منتصف الطريق بين أسنانها، التي تضغط على طرفه من جهة، وبياض الصفحة وألف البداية من جهة أخرى. تعض الغطاء البلاستيكي الأزرق الذي يتوّج أعلى القلم، فتترك أسنانها أثرًا يؤنبها فتبعده قليلاً. تتأمل آثار الرصاص على أناملها التي ظلت تقلب الصفحات المتهالكة وتعبث بها بحركة لا إرادية.. تنهض لتغسل يدها لتزيل ما علاها، وهي تدندن لحنًا صغيرًا، وتعود بعدها لتلقي بالنوتة البنية في الدرج الذي سكنته لسنوات وتغلقه بإهمال. لطالما كرهت اللون البني. احتضنت كفها الغلاف الأخضر، رتّبت بداخله القلب المبعثر، وأودعته برفق بجوار الديوان الشعري المفتوح على قصيدة تقرؤها.

-٦-

ف بلد البنات كل البنات
مالية جيوبها سكر نبات
ف بلد البنات كل البنات
ماشية وظابطة
ف إيدها الساعات
وقبل ما تقفل بيبان البيوت
وقبل ما ينزل ضلام الحارات
ف بلد البنات بتجري تروح
ف بلد البنات كل البنات
لما بتضحك بترقص قلوب
لما تغني تاخدنا الآهات
ف بلد البنات كل البنات
تحلم تضوي زي النجوم
بتحلم ترفرف زي الرايات
بتقدر تعاند وتقدر تثور
لكن ساعات كتير م الساعات
دق الساعات بيجرح حاجات
ويخنق حاجات

محمد منير
كلمات كوثر مصطفى

الأوله
ساعة ذروة

غابة استوائية من اللحم والمعدن ارتفعت فيها الحرارة والرطوبة والعرق، وتدافعت الأجساد المتلاصقة، وتعالت الصيحات والنداءات وسط الصناديق الحديدية الملتهبة القابعة فوق عجلاتها، وقد اختنق بها الطريق. بدا أن القانون الذي ساد بين الجمع هو قانون الغابة الذي سُطِر منذ الأزل، وينص على أن البقاء للأقوى، مما دفع الأضعف -لا شعوريًا- إلى محاولة التجمع في وحدات صغيرة متقاربة لزيادة فرص النجاة.

وقفت تحتضن حقيبتها كدرع وهي تراقب فتاة، وقد التصقت بأخرى جسدًا واحدًا، وبما يشبه المعجزة ابتلعهما التابوت المعدني الذي تدافعت حول فوهته الأجساد. كان هذا آخر باب في سلسلة بدت لها لا نهائية من الأبواب التي أغلقت في وجهها، وقد سدتها أكوام اللحم المهدل المتراكم، الذي فاحت منه رائحة الإرهاق والحرارة الوحشية. ترددت لحظات قبل أن تمضي قدمًا وتسبح وسط الأجساد المتلاطمة المتصارعة، حتى شقت طريقها بنجاح نحو مدخل الشرف الذي يخصصه السائق لمن يختارها للجلوس بجواره، وقد علقت أعلاه لافتة غير مرئية، وإن تعارف على وجودها الجميع، كما تعارفوا على الأحرف المسطورة على وجهها.. «ش ه ا م ة»!

امتدت يد السائق تفتح لها الباب، وهو يشير لها برأسه أن تصعد، بينما علت وجهه ابتسامة لزجة. مثلما التحمت وحدات

القطيع الأضعف بعضها مع بعض، لزيادة فرصها في النجاة، استدارت هي لتواجه النافذة المفتوحة، وقد التصقت لا شعوريًا بالباب، بعد أن اختارت المقعد المجاور له بدلاً من ذلك المجاور للسائق مباشرة. مدت يدها له بالأجرة ثم أولته ظهرها ثانية. بدا تصرفها الغريزي مهينًا له، وقد تساقطت الأحرف غير المعلنة من على اللافتة الخفية، لتحل محلها أحرف أخرى، تكونت منها ألفاظًا جديدة جالت بخاطره.

فتح بابه ونزل، ليدور دورة كاملة حول السيارة، وكأنه يتفقد العجلات. وقف أسفل النافذة المفتوحة بجوارها ليطالع ملامح تلك التي جلست بعيدًا وأدارت له ظهرها، بينما أدارت هي وجهها مرة أخرى تتأمل الفتاتين اللتين التصقتا بعضهما ببعض أكثر من ذي قبل في المقعد الخلفي، وقد صنعتا من حقائبهما جدارًا عازلاً يفصل بينهما وبين الأجساد الأخرى التي تراكمت على المقعد الضيق. ركل السائق الإطار بعنف ثم بصق، قبل أن يدور مرة أخرى ويعود إلى مقعده.

قبل أن يبدأ في التحرك، اندفع جسد ضئيل من بين الحشد الذي حاصر السيارة ولوّحت صاحبته بذراعها، وهي تصيح بصوت حاولت أن تجعله يرتفع فوق الصخب. ألقى نظرة سريعة على السلسلة الذهبية التي تعلقت بعنقها، ثم ابتسم ابتسامته اللزجة مرة أخرى، قبل أن يهز رأسه بسخرية متجاهلاً صياحها، ويهم بإدارة المفتاح الذي قبضت عليه أصابعه. لمحت كلتا الفتاتين نظرته تلك. صاحبة السلسلة لمحتها عندما التقت نظرتهما لوهلة

خاطفة، والجالسة بجوار النافذة لمحتها عندما استدارت لتتأكد ما إذا كان عليها التحرك من مقعدها لإفساح مكان للراكبة الجديدة. وفيما يشبه التواطؤ الخفي فهم ثلاثتهم مغزى النظرة ومغزى التجاهل لصاحبة السلسلة. استدارت الفتاة تواجه السائق، وقد انحنت باتجاهه بعض الشيء لتنظر في عينيه مباشرة، بينما نظرتها تفيض سخرية واحتقارًا.

- ده مفتاح الحياة على فكرة!

قالتها باترة مقتضبة وهي تمد يدًا تطالب بالأجرة التي دفعتها للتو، بينما اليد الأخرى تفتح الباب استعدادًا للنزول. تجاهل اليد الممدودة وأدار المفتاح. شرعت السيارة في الحركة، مما أجبرها على النزول بسرعة. التوى كاحلها، لكن صاحبة السلسلة ساعدتها على استعادة توازنها مرة أخرى. وقفت الفتاتان معًا وسط الحشد، بينما علت من السيارة نغمات أغنية أخذت في الابتعاد.

«كل البنات بتحبك.. كل البنات حلوين».

التانيه
قفص الدجاج

لماذا كانت تتذكر دكان الفرارجي القديم كلما مرت بذلك المحل الآخر؟ الأول كان دكانًا عتيقًا صغير الحجم، تفوح منه رائحة عطنة مكتومة، وتلتصق بجدرانه بقايا قاذورات وريش، وأمامه بقع آسنة من مياه اتسخت بالدم. تراصت بداخل عتمة الدكان بعض الأقفاص المعدنية القذرة التي تكومت بداخلها الدجاجات بعضها فوق بعض في بؤس، بينما انتصب أمامه قفص من جريد رقدت عليه بضع حمامات عجفاء دون حراك، في أثناء ما كانت بطة سوداء كبيرة تركض لتلتهم بقايا القاذورات المتكومة على أرضية المحل. كان الرجل يمسك بالدجاجة دونما اكتراث، ويلوي عنقها وهو يحزه سريعًا بالسكين، قبل أن يلقي بها على قارعة الطريق الترابي أمام الدكان، لتتقافز بجنون وهي تؤدي رقصتها الأخيرة أمام جماهير المارة، الذين يعبرون فوقها وبجانبها دون اهتمام أو نظرة حتى تخمد قواها وتتوقف عن مقاومة المحتوم. عندئذٍ يمسك بها صاحب الدكان ويلقي بها في إناء ضخم من الماء المغلي لدقيقة أو دقيقتين، قبل أن ينتشلها ليلقي بها مرة أخرى في آلة مزعجة تتراقص هي الأخرى، وبداخلها الدجاجة حتى تنتزع ريشها، وتخرجها يد الرجل ليكسوها كيسًا من البلاستيك تقطر منه بقايا الماء، وهو يمد يده الأخرى ليتلقى الثمن.

المحل الثاني الذي كانت تمر به يوميًا في طريقها كان يبيع المبيدات والمنظفات الكيماوية وأدوات التنظيف البلاستيكية. كان واسعًا جدًا ولا يوجد به سوى مكتب صغير وكرسي خشبي في المنتصف. لم تكن

هناك أي أرفف ولا واجهات عرض زجاجية للبضاعة. مجرد مسامير على الحوائط تدلت منها عبوات سلك معدني لتنظيف الأواني وأكياس الشامبو الصغيرة ومسحوق لتسليك البالوعات المسدودة، بالإضافة إلى أمواس الحلاقة رديئة الجودة. كان هناك طبق بلاستيكي مشروخ به مشابك غسيل ملونة، تكومت بعضها فوق بعض، وبجوار الطبق برميل بلاستيكي أزرق اللون، به مساحة من الكاوتشوك المشقق، ومقشتان وزعافة، بينما تراصت في أحد الأركان بعض زجاجات من الفينيك. العامل المشترك بين البضائع القليلة المعروضة في المحل كانت القذارة والأتربة ومخلفات الذباب المتراكمة عليها بكثافة. أبدًا لم تر رغم مرورها اليومي شخصًا يدخل المحل ويسأل عن شيء أو يشتري شيئًا ما. كانت فقط تراها هي، تلك الفتاة النحيلة التي تعمل في المحل وحدها، تجلس على عتبته تنظف الخضراوات مع زوجة بواب العمارة المجاورة، أو تبتعد قليلاً لتقف على عتبات الدكاكين المجاورة تضحك مع الكهربائي وبائع الخضراوات والبقال والمكوجي.

كانت فتاة الدكان النحيلة تبدو دومًا، وكأنها تقوم بتمثيل مشاهد متفرقة من عدة أعمال مختلفة لا يجمعها رابط، ولم يكن أيٌّ من هذه المشاهد يبدو وكأنه قد كتب لها. كانت جميعها أدوار لبطلات أخريات غيرها تحاول هي تقمّص شخصيتهن عوضًا عن لعب دور الكومبارس الصامت، لكنها كانت تظهر بمظهر من يرتدي ثوبًا غير مريح ولا يتفق معه، لا من حيث المقاس ولا الموديل. وبالرغم من ذلك، كانت ترتديه لأنه يلائم ما كانت تعتقد أنه الموضة وما يلقى القبول بين الناس. تقف وهي تستند بيد على

جدار دكان الكهربائي المجاور، بينما تشير باليد الأخرى وترسم بها في الهواء علامات بلا معنى، وكأنها لقطت الوقفة والحركة من مشهد تليفزيوني، وكررته دون تغيير يتناسب مع ما كانت تحكيه وهي تضحك. تتوقف لتراقب رد فعل الكهربائي وصبي المكوجي الذي وقف معهما هو الآخر، ثم تكمل الضحك. لم تكن لها ضحكة ثابتة يمكنها ادّعاء حقوق ملكيتها بقدر ما كانت تنوّع وتشكل طبقات ودرجات الصوت، وتلونها تبعًا لكل ضحكة تحاول تجربتها. كانت تفعل المثل بطبقات صوتها ولهجتها عند الحديث أيضًا. كانت لها لكنة غريبة بعض الشيء في الحديث وكأنها تحاول التخلص من لكنة أصلية وانتحال أخرى، فانتهت بها الحال لاجئة على حدود اللغة دون أصول واضحة مميزة. كانت تتكلم وتضحك فيضحكون، لكنها لم تكن تعرف -أو ربما لم يخطر في بالها- احتمال أن يكون ضحكهم ليس تفاعلاً ومشاركة معها، بقدر ما هو سخرية وتسلية على حسابها.

تمر كعادتها يوميًا من أمام الدكان، تسجل في عقلها للمرة الألف المفارقة الصارخة، بين قذارة المحل وتخصصه في بيع مستلزمات النظافة، ثم لا تلبث أن تنقل اهتمامها لمراقبة الفتاة في لحظات مرورها الوجيزة. كانت أحيانًا تتلكأ عن عمد لتقتنص بضع لحظات إضافية، تتأملها خلالها وتستمع لحديثها وضحكاتها، التي كانت تتنوع وتختلف كل يوم عن سابقه باختلاف الشخصية التي تتقمصها. يومها كانت السماء بادية الكآبة، وقد انتشرت على صفحتها رقع من سحب رمادية، لم تلبث أن تمزقت تحت وطأة حمولتها من الأمطار التي انسالت بكثافة مفاجئة، لم تدم سوى

بضع دقائق. خلال الدقائق المعدودة تلك، جرت أنهار صغيرة من المياه لتسيل من أعلى الشارع المائل لأسفله، مخلّفة وراءها برگًا راكدة. للحظات كانت تنعكس في عمقها السماء بسحبها التي أخذت في الانقشاع وأفرع الأشجار الخريفية العارية ببقايا أوراقها والعمارات السكنية التي بدت في صفحة المياه لامعة مضيئة، على عكس حقيقتها الكابية وواجهاتها المتقشرة ذات الطلاء المترب المتساقط. كل ذلك استمر لمجرد لحظات قبل أن تتعكر صفحة المياه بأتربة وقاذورات الطريق المتراكمة، لتختفي الانعكاسات اللامعة وتذوب وسط اللون الطيني الداكن.

خلال اللحظات الوجيزة تلك، لمحت في عيني فتاة الدكان النحيلة نظرة كانت تراها قبل ذلك بصورة متقطعة وغير واضحة. كانت تبدو من قبل نظرة باهتة تائهة المعالم، يحار المرء في تفسيرها. لكنها في تلك اللحظة بدت وكأنها تركيز وتكثيف لكل ما سبقها من نظرات، وبانت جلية لأول مرة. كانت نظرة جوع.. تحديدًا نظرة الجائع الذي يرى سفرة عامرة امتدت أمامه، وهو لا يستطيع أن يسد رمقه ولو من فتاتها أو نظرة من تعذبه رؤى السراب، وسط قحط بيداء شاسعة، ولا يستطيع مهما سعى إليها أن يجد لإرواء عطشه سبيلاً.

كانت عيناها غارقتين في برك المطر الطينية وقد كستها تلك النظرة. ولأول مرة أدركت أن الفتاة تذكرها بتلك الدجاجات التي كانت تتكوم في بؤس داخل أقفاصها القذرة، تنتظر في استسلام مصيرها المحتوم حتى تقدم رقصتها الأخيرة قبل الرحيل. لكنها لم

تكـن مستسـلمة تمامًـا كالدجاجـات، بـل كانـت تحـاول اسـتعارة ريـش الطيـور الأكـثر بريقًـا وزهـوًا لتعـوض أجنحة الدجـاج التي كانـت تعوقها عـن الطـيران. تـرى أمامهـا السـماء عـلى اتسـاعها ولا تملـك سـوى زوج مـن الأجنحـة العاجـزة التـي لا تمكّنهـا مـن التحليـق عاليًـا والابتعـاد. كانـت نظرتهـا تلـك توحـي بأنهـا تـدرك تمامًـا أن أقـرب لحظـة سـتتمكن فيهـا مـن لمـس السـماء هـي تلـك اللحظـة الوجيـزة التـي تقـترب فيهـا مـن انعكاسـها، قبـل أن يبتلعـه الطـين وقـاذورات الطريـق. كانـت البـرك الصغـيرة تلـك بمثابـة شـظايا أحلامهـا المتكـسرة، التـي تـرى في صفحتهـا انعكاسـات لمـا كان يمكـن أن يكـون.

لبثـت تفكـر في نظـرة الفتـاة مـا تبقـى مـن يومهـا، ولليـوم التـالي أيضًـا، حتـى مـرت بجـوار الـدكان مـرة أخـرى. كان خاليًـا، مفتوحًـا عـلى مصراعيـه، لكـن لم يكـن هنـاك مـن أحـد بداخلـه. اليـوم الـذي يليـه رأت فتـاة جديـدة تجلـس متربعـة عـلى الكـرسي الـذي يتوسـط المحـل، وبجوارهـا تقـف ابنـة بـواب العـمارة المجـاورة، تسـاعدها في حـل واجباتهـا المدرسـية. لم تـر الفتـاة النحيلـة ثانيـة. فكـرت أنهـا ربمـا كانـت مخطئـة بشـأنها. ربمـا لم تكـن دجاجـة داخـل القفـص، بـل لعلهـا كانـت مثـل البطـة القبيحـة في حكايـة أندرسـون الشـهيرة. ربمـا لم تعـد بحاجـة إلى اسـتعارة ريـش غيرهـا مـن الطيـور، وقـد نمـا لهـا ريشـها الخـاص وصـارت بجعـة ناصعـة البيـاض، وقـد حلقـت بعيـدًا.

التالته
أمطار السخان المشروخ

تصفق بيديها، تدور دورة كاملة وهي تتأمل ملابسها التي ارتفعت ودارت معها بفرح، ثم تتقافز بقدميها الصغيرتين وسط البحيرة التي افترشت أرض المطبخ، وبلغت حدودها الحوض شمالاً والدولاب الطويل غربًا. تتناثر قطرات الماء مع كل قفزة من قفزاتها، بينما تنهمر الأمطار بغزارة تبلل خصلات شعرها ووجهها وملابسها، وهي تؤدي رقصتها المنفردة تحت سخان المطبخ المشروخ.

صوت الخطوات السريعة القادمة من الخارج جعلها تتوقف برهة، قبل أن تقرر تجاهلها تمامًا والاستمرار في طقوسها الخاصة داخل عالمها الصغير. ترفع يديها لأعلى لتغطي أذنيها بذراعيها الممدودتين فوق رأسها، بينما الكفين الصغيرتين تحاولان الإمساك بالقطرات المنهمرة. تغرق الأصوات القادمة من العالم الخارجي بأغانيها التي تغنيها بلغة فريدة، تبدو وكأنها مزيج من الصينية ولغة بلاد واق الواق.

الصياح المألوف لها صاحبه صوت آخر جعلها تنتبه وتلتفت. رجل غريب معه صندوق بدا لها مبشرًا باحتمالات لا متناهية للعب. تستدير باتجاهه وتمد يدًا نحو الصندوق المعدني الأحمر، بينما الأخرى قد امتدت بسوار بلاستيكي صغير زاهي الألوان، في نوع من المقايضة التي بدت لها معقولة وعملية للغاية. امتدت يد صاحب الصندوق تداعب شعرها، بينما امتدت يد صاحبة الصياح تبعدها عن الطريق. تراجعت للخلف قليلاً تراقب المشهد..

ممسحة ضخمة تجفف بحيرتها الصغيرة، بينما الصندوق الأحمر قد تمخّض عن أدوات متعددة، شرعت في إيقاف الأمطار وتجفيفها هي الأخرى من المنبع.

اتسعت عيناها في خوف واحتجاج، ثم استمرت في التراجع للوراء ببطء وهدوء. تسللت للحمام حيث سحبت الكرسي الصغير من مكانه في أحد الأركان حتى استقر أمام الحوض تمامًا. اعتلته حتى صارت في مستوى يسمح لها بسد فوهة البالوعة، قبل أن تفتح الصنبور عن آخره. ملأت المياه الحوض حتى فاضت عن حوافه. تأملت البحيرة التي أخذت تتكون حولها من جديد، وكلما اتسعت حدودها اتسعت ابتسامتها. ألقت نظرة أخيرة سريعة كالملك الذي يطمئن على حدود مملكته، قبل أن تهبط من على الكرسي.. قدم صغيرة تلتها الأخرى. أزاحت الكرسي بعيدًا واستكملت رقصتها وهي تغني من جديد.

نهاية

الوصول إلى كلمة النهاية المكتوبة في الكتب بعد أن تتم القصة، والتي لم أصل إليها أبدًا، ولن يصل إليها أحد من البشر، فالقصص لا تنتهي بالفراق ولا باللقاء ولا حتى بالموت، بل يبدأ فصل آخر، في كل الحكايات التي قرأتها والتي رأيتها كانت حيرتي تزيد مع آخر فصولها، وأنا أتساءل: وماذا بعد؟ ما الذي سيحدث للبطل الذي مات ولمن تبقى من بعده؟ هل ستظل النهايات السعيدة سعيدة والحزينة حزينة والمفتوحة مفتوحة، أم ستغلق؟ لا شيء يغلق سوى الكتاب. لكي تنتهي الحكاية يجب أن يموت الجميع ولا يبقى واحد ليكمل أي شيء.

حسن كمال

المرحوم

التالته
الثانية بعد الألف

أكابيـلا.. وريقـة صفـراء وحيـدة تصـدر خشخشـة خافتـة وهـي تحتـك بالغصـن الـذي تتعلـق بـه بالـكاد، تراقـص نسـمة خفيفـة لا ترقـى لمسـتوى الريـح ولا يُسـمع لهـا صفـير. أكابيـلا.. قطـرة منفـردة مـن مطـر تسـقط عـلى وجنتهـا بخفـة كوعـد بـشيء مـا يلـوح في الأفـق، قبـل أن تـزم السـحابة العالقـة بالسـماء شـفتيها وتمتنـع عـن البـوح بالمزيـد. أكابيـلا.. صـوت منفـرد يتعـالى في رأسـها، وقـد صمـت أذنيهـا عـن العـالم الخارجـي في جلسـتها عـلى مقعـد الحديقـة الخشـبي في ذلـك النهـار الخريفـي البـارد.

مشـاعر وأحاسـيس شـتى تطـن في رأسـها كـسرب نحـل إفريقـي قاتـل، تلدغهـا لدغـات متكـررة لا تجـد منهـا مهربًـا، ويدفعهـا طنينهـا المسـتمر دون انقطـاع إلى هاويـة الجنـون. يـتردد الطنـين في أذنيهـا نغمـة واحـدة مضخّمـة ولهـا صـدى.. «نننننننننننـن». يبـدو حـرف النـون عملاقًـا مثـل مغناطيـس حـدوة حصـان ضخـم، يجـذب تجاهـه بعـض الحـروف الأخـرى، لتتشـكل داخـل رأسـها كلمـة «نهايـة». لكـم تعبـت مـن النهايـات! ولكـم تكرههـا! تعبـث بطـرف إصبعهـا في جـزء متـآكل مـن خشـب المقعـد، ثـم لا تلبـث أن تسـحبه مسرعـة وتضعـه في فمهـا بحركة لا إراديـة، وقـد أصابتـه شـظية وكأنهـا لسـعة مـن لسـعات النحـل التـي في عقلهـا، انتقلـت إلى حيـز الواقـع وأصابتهـا. كانـت لحظـة ألم خاطفـة كفيلـة بجعلهـا تنتقـل مـن عالمهـا الداخـلي المنعـزل إلى العـالم الخارجـي بـكل رحابتـه.

عصفور رمادي اللون وقف على فرع الشجرة أعلى رأسها. قفز قفزات صغيرة متتالية حتى أسقطت قفزته الأخيرة ورقة الشجر الوحيدة. امتقع وجهها وهي تراقب الوريقة تتهاوى وتتقلب يمينًا ويسارًا دون وجهة محددة. أشاحت بنظرتها عن الورقة المتأرجحة في مهب الريح وسددت نظرة سخط للعصفور الذي أمال رأسه يمينًا وهو يبادلها النظر، قبل أن يطلق من حنجرته نغمة أحادية حادة، بدت وكأنها وخزة أخرى فيها تأنيب وعتاب. سقطت قطرة مطر على وجنتها، تبعتها أخرى ثم أخرى.. انطلق بعدها العصفور في لحن تعددت نغماته وتداخلت مع صوت الريح التي اشتدت بعض الشيء، وأخذت تتلاعب بأفرع الشجر. ارتفع من بعيد صوت نغمات بدت لها مألوفة، وإن لم تميز كلمات الأغنية المصاحبة لها. أرهفت السمع وركزت انتباهها مع اللحن الذي اقترب شيئًا فشيئًا، حتى أخذ الصوت يخفت تدريجيًا وهو يبتعد مرة أخرى. أثار اللحن الغامض في نفسها بقايا ذكرى، مثل حكاية من حلم استيقظت لتوّها وهي لا تستطيع الإمساك بذيوله المنسحبة بين أطراف أصابعها. قادتها قدماها لتتبع اللحن المنسحب، علّها تمسك بأول خيط الكلمات، كما قادتها عبر دروب أخرى كثيرة من قبل. ألف خطوة وخطوة مشتها، وها هو مشوار جديد يبدأ بالخطوة الثانية بعد الألف.

الفهرس

شكر 7
بداية 11
الأوله: الكلام المباح 13
1 (الفصل الأول) 17
الأوله: ليمون بالنعناع الأخضر 19
التانيه: إيثاكا 25
التالته: هليوبوليس 35
2 (الفصل الثاني) 49
الأوله: جلا جلا 51
التانيه: حدث في مثل هذا اليوم 57
التالته: أسفار الجبل 63
3 (الفصل الثالث) 71
الأوله: تلصص 73
التانيه: راحة 77
التالته: غربة 83
فاصل 89
التانيه: ربات البياض 91
4 (الفصل الرابع) 97
الأوله: رسائل بيت الرمان 99
التانيه: أبواب 109

التالته: مختار المشاعر 115
5 (الفصل الخامس) 123
الأوله: عصير برتقال 125
التانيه: حنين 131
التالته: النوتة 137
6 (الفصل السادس) 141
الأوله: ساعة ذروة 143
التانيه: قفص الدجاج 149
التالته: أمطار السخان المشروخ 157
نهاية 161
التالته: الثانية بعد الألف 163

بتكتب رواية أو قصص أو مقال ..
بالفصحى، بالعامية أو حتى بالأنجليزى ..
بتحب تكتب ، أو تعرف حد بيحب يكتب ،كلمنا ..
هنعمل كل اللى نقدر عليه عشان نساعدك تحقق حلمك
وتكون كاتب معروف ..
لأن فى كيان ، للإبداع مكان ..

اتصل بينا على :
محمول: 01005248794 – 01001872290 – 01000405450
أرضي: 0235688678
www.kayanpublishing.com

وابعتلنا على :
info@kayanpublishing.com
kayanpub@gmail.com

وتابعنا :

kayanpublishing kayan.publish

kayanpublishing kayan_publishing